قصة

الأدب في مصر

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



الأدب فى مصر الحديثة

١٢١٣ - ١٣٧٥ هـ : ١٧٩٨ - ١٩٥٥ م

الجانب السياسى لمصر فى هذه الفترة :

ينقسم العصر الحديث فى مصر سياسياً إلى ثلاثة عهود :

١ — العهد الأول عهد الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ - ١٢١٦ هـ : ١٧٩٨ - ١٨٠١ م)، وهو عهد قصير الأمد ولكنه عظيم الأثر فى تاريخ مصر السياسى ، ففيه تجلت عظمة مصر الخالدة ، ومدى إيمانها بحقها وحريتها ، وحرص الشعب على الذياد عن كرامته وعزته . وقد بدأ هذا العهد بدخول نابليون بونابرت القاهرة ، وإنشائه الديوان الوطنى من عشرة مشايخ هم : عبدالله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدى الكبير ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى . واختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى ، واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضاءه ؛ وهو أول ديوان وطنى . ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

ولقد كان الأزهر قائد الحركة الوطنية ضد الفرنسيين والطغاة ، وكانت له زعامة الشعب وقيادة الحركة العقلية والعلمية فى البلاد .

ومرت مصر[١] خلال هذه الفترة بأحداث مثيرة استدعت بذل ضروب عالية من التضحية ؛ وقد خاض الأزهر غمار هذه الحوادث ، واستجاب زعماؤه لداعى الوطن ، باذلين ما فى وسعهم من تضحيات فى سبيله .

فلم تكد تستقر الحملة الفرنسية فى القطر المصرى فى صفر ١٢١٣ هـ (يولية ١٧٩٨)

---

(١) الأزهر فى ألف عام ص ٩٥ ج ١ .

حتى ثفر الشعب وزعماؤه دفاعا عن كرامة الوطن وحريته ، فقامت الثورات في جميع أنحاء القطر ، لطرد المستعمرين من البلاد ، وكانت القاهرة مركزا لثورتين مهمتين: الأولى في جمادى الأولى ١٢١٣ هـ (أكتوبر ١٧٩٨) وعلى رأسها الشيخ السادات ، حيث كان رئيساً لمجلس الثورة . والثانية في ٢٣ شوال ١٢١٤ هـ (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعلى رأسها زعيم العلماء في ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الأشراف . وقد استعمل الفرنسيون جميع أنواع القسوة لكبت الشعور القوى والقضاء على المقاومة الأهلية ، ولكنهم لم ينجحوا في خطتهم ، وانتهى الأمر بفوز المقاومة الأهلية ، وجلاء الغاصبين عن أرض الوطن .

وكان السيد عمر مكرم (١٧٥٥ - ١٨٢٣) الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية وإليـــه يرجع الفضل في تعبئة القوات الوطنية ،تعبئة قلما تتوفر في ثورة من الثورات ، ولم يستطع الفرنسيون القبض عليه عقب إخماد الثورة ، إذ تمكن من الفرار من القاهرة تاركا أملاكه عرضة للنهب والمصادرة ، ولم يدخل القاهرة بعد ذلك حتى جلاء الفرنسيين عن عاصمـــة البلاد في ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ (يولية ١٨٠١) .

وكان عمر مكرم من أرفع المصريين ذكراً في القرن الثامن عشر ، قضى حياته في خدمة الشعب وتحقيق أمانيه ورفع الحيف عنه والسعي إلى تحريره وإعلاء كرامته ، وقد حفزته عاطفته الوطنية المشبوبة إلى مناهضة الفرنسيين توطئة لاخراجهم من مصر .

وكان ظهور عمر مكرم في ميدان السياسة في عام ١٧٩٥ حين اضطربت الأمور في القاهرة وفزع الناس من طغيان إبراهيم ومراد من أمراء المماليك ، فقد أبى الشعب وعلى رأسه العلماء ونقيب الأشراف أن يترك الطاغية يحكم وفق هواه وألزموه بشروط يعدها المؤرخون وثيقة حقوق الإنسان الأولى التي سبقت في تاريخها إعلان حقوق الإنسان في فرنسا في أعقاب ثورة سنة ١٧٩٨ ، وفي هذه الوثيقة الاجتماعية الكبرى أعلن الأمراء المماليك أنهم يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التي يفرضها عليهم القانون والعرف : من صرف الأموال على مستحقيها ، ورفض الضرائب الإضافية ، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم بالأذى ، وبأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة .

ومضت عدة أعوام حتى إذا كان يوم ٣ يولية عام ١٧٩٨ هبطت قوات الحملة الفرنسية مدينة الإسكندرية تغزو البـــلاد ، وكان شعب القاهرة فى حالة فزع واضطراب ، فهل فى وسع المماليك أن يدافعوا ويكافحوا ويردوا الغزاة الفاتحين ؟ وتمثلت هذه المحنة فى خاطر عمر مكرم بأنها امتداد للحروب الصليبية ، ولذلك أذاع نداء على الشعب يحثه على الجهاد الدينى ، فخرج الرجال والشبان ، ولم يبق سوى الضعفاء والأطفال والنساء ، وجاد كل منهم بما يملكه من دراهم ، وابتاعوا السلاح والذخيرة والخيام ، وهبط مكرم من القلعة إلى ساحل بولاق يحمل علماً يسميه العامة « البيرق النبوى » ، والناس حوله ألوف مؤلفة ، وفى أيديهم السلاح الساذج : من سيوف ومدى وهراوات ، ومعهم الطبول والزمور ، ووقفوا على غير نظام يشدون أزر جيش المماليك الذى كان يقاتل على الضفة الأخرى للنيل .

وبعد جهاد الشعب الطويل جلت الحملة الفرنسية ، وعادت مصر إلى حكم العثمانيين ، وفى خلال السنوات الخمس المتعاقبة تولى الحكم خمسة من الولاة ، قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا فى القلعة . . كان آخر هؤلاء الولاة أحمد خورشيد ، فاحتشد فى الأزهر جموع من التجار والصناع وطلبة العلم وجاهروا بالتمرد والعصيان ثم أغلقوا المتاجر والمصانع والمنازل ، حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة . وانتهز محمد على أحد قواد الفرقة الألبانية غير النظامية فرصة تذمر طبقات الشعب ، فصار يتودد إلى مكرم بوصفه زعيم الشعب ، ويزوره سرا فى الليل ، ويستميله بشتى الوعود ، ويقسم له الأيمان الكاذبة بأنهم إن مكنوه من الحكم ، فإنه يسير حسب نصوص الشرع ، والإقلاع عن المظالم ، ولا يبرم أمرا إلا بمشورة العلماء ، وأنه إذا خالف هذه الشروط عزلوه ، وأخرجوه من الحكم . وصدق عمر مكرم هذه الوعود ، وأخذ على عاتقه إقناع العلماء بمشاركته فكرته ، وأذاع نداء على الشعب بالاجتماع أمام المحكمة الشرعية ، فلما كان اليوم التالى خرج الأفراد والجماعات من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم ، وأقبل المزارعون من الضواحى حتى احتشدت بهم الطرق والمسالك المؤدية إلى المحكمة ، ثم أقبل السيد عمر مكرم ، فاقترح المناداة بعزل خورشيد وإسناد الولاية إلى محمد على . وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة وبالضرائب الفادحة التى يطلب إليه دفعها صاغراً ، كان فى حاجة إلى مصافحة أى يد تمتد إليه ، لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكروب والمحن ، ولذلك

وافق على الاقتراح الذى تقدم به السيد مكرم ، لاحباً فى القائد وإنما كرهاًفىالوالى العثمانى ، وطلب العلماءوعلى رأسهم مكرم إلى الوالى النزول عن الحكم طوعاً لإرادة الشعب ، فأبى مستكبرا وأجابهم بأنىمعين بأمر السلطان فلاأنزل بإرادة الفلاحين ، واستشاط العلماء غضباً من هذه الإهانة الموجهة إلى الشعب ، واتفقت كلمتهم على محاصرة الوالى فى القلعة لإرغامه على التنازل عن الحكم ، وبدأ النضال سافراً ، وشرع أفراد الشعب فى تكوين فرق شبه عسكرية تتولى إقامة المتاريس وحفر الخنادق وحراسة مداخل المدينة ومد المساعدة إلىالجنودوتسليح الشعب بالأسلحة البيضاء والهراوى ، ومنعوا الماء والغذاء والمددعن الوالى فى القلعة ، وكان مكرم فى غضون فترة الحصار حركة لاتهدأ ، كان يتنقل بين الصفوف ، ويستثير الهمم والنخوة القومية ويشجع المحاصرين ، وبرزت الى جانبه أسماء زعماء من الشعب : كابن شمعة وحجاج الخضرى الذى تمكن من أسر قافلة من الإبل محملة بالذخائر والمؤن كانت فى طريقها إلى القلعة لتموين الوالى ، وقدم هذه القافلة غنيمة باردة إلى القائد المرشح للولاية . وانتهىالنزاع طوعا لإرادة الشعب ، فنزل الوالى المعزول عن الحكم ، وأسندت الولاية إلى الحاكم الجديد ، وبذلك انتصرت إرادة الشعب وذلك عام ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م .

(ب) العهد الثانى : عهد حكم أسرة محمد فىمصر ، هذهالأسرة التركية التى ورثت أخلاق الترك فى دمائها ، ولم تمتزج بشعب مصر فى يوم الأيام ، وقد امتد حكمها من عام (١٢٢٠ — ١٣٧١ هـ : ١٨٠٥ - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م) ، وتولى حكم مصر فى هذه المدة حكام عديدون ، هم محمد على وذريته ، وهم :

١ – محمد على (١٢٢٠ - ١٢٦٤ هـ : ١٨٠٥ - ١٨٤٨ م)[1]

---

(١) ولد محمد على عام ١١٨٣ هـ : ١٧٦٩ م ، وقدم إلى مصر أول مرة عام ١٢١٣ هـ : ١٧٩٩ م ، ثم قدم إليها المرة الثانية بعد ذلك بعامين ، وتولى حكم مصر عام ١٢٢٠ هـ : ١٨٠٥ وأيدت ولايته عام ١٢٢١ هـ : ١٨٠٦ ، وقد ارتكب مذبحة القلعة عام ١٢٢٦ هـ : ١٨١١ م ، وتنازل عن الملك لابنه إبراهيم عام ١٢٦٤ هـ : ١٨٤٨ م وتوفى فى ١٢٦٥ هـ : ١٨٤٩ م .

٢ — ابراهيم بن محمد على (١٢٦٤ هـ - ١٢٦٥ هـ : يوليـــو ١٨٤٨ - ٢ أغسطس ١٨٤٩) .

٣ — عباس الأول (١٢٦٥ هـ - ١٢٧٠ هـ : ١٨٤٩ - ١٨٥٤) .

٤ — سعيد باشا (١٢٧٠ - ١٢٨٠ هـ : ١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) .

٥ — اسماعيل باشا (١٢٨٠ هـ - ١٢٩٧ : ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) .

٦ — توفيق (١٢٩٧ - ١٣١٠ هـ : ١٨٧٩ - ١٨٩٢ م) .

٧ — عباس الثانى (١٣١٠ - ١٣٣٣ هـ : ١٨٩٢ - ١٩١٤ م) .

٨ — السلطان حسين كامل (١٣٣٣ - ١٣٣٧ : ١٩١٤ - ١٩١٧ م) .

٩ — أحمد فؤاد (١٣٣٧ - ١٣٥٥ هـ : ١٩١٧ - ١٩٣٦ م) .

١٠ — فاروق بن فؤاد (١٣٥٥ - ١٣٧١ هـ : ١٩٣٦ - ٢٦ يوليو ١٩٥٢م) .

١١ — أحمد فؤاد بن فاروق (٢٦ يوليو ١٩٥٢ - ١٨ يونيو ١٩٥٣ م) .

وقد بدأ هـــذا العهد عند ما اجتمع زعماء الشعب من علماء الأزهر فى يوم الاثنين ١٣ من صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) وقرروا عزل خورشيد باشا وتنصيب محمد على والياً على مصر . وعقب إصدار القرار فى المحكمة توجهت الجموع إلى محمد على ، وفى طليعتهم علماء الأزهر ، وعلى رأسهم : الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر ، ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، وذهبوا إلى محمد على وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقـال : ومن تريدونه أن يكون والياً ؟ قالوا : لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخـير . فامتنع أولا ، ثم رضى . وأحضروا له كركا . وقام إليه شيخ الإسلام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر فألبساه إياه وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وفى ١١ من ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (٩ من يولية سنة ١٨٠٥ م) وصل مرسوم الدولة لمحمد على والى جدة سابقا بولايته مصر من ابتداء ٢٠ من ربيع الأول ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية .

وحكم محمد على هو وذريته مصر بالحديد والنار ليتخلصوا من زعماء مصر ، وليضمنوا سلامة العرش لهم ، وليقنعوا المصريين بأن من الواجب عليهم أن يطيعوا

ولى الأمر، وإلا حقت عليهم كلمة العذاب ، فقتل محمد على المماليك جملة فى مذبحة القلعة المشهورة عام ١٨١١ هـ ، وسلط الجنود الألبانيين على المصريين نهباً وسلباً وقتلا ، واغتال المجاهدين المؤمنين بمصر والمدافعين عنها الطغيان والظلام ، وكذلك فعل أبناؤه من بعده ، وكانت الأسرة تتوارث الدم التركى جيلا بعد جيل ، والاستقلال الإسمى الذى حصلوا عليه إنما كان ذريعة لحفظ عرشهم والقضاء على خصومهم، وهو الشعب ، وقد وقعت خلال هذا العهد : الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ ، عدا ثورة مصطفى كامل ، ومطالبته بالحرية لمصر والشعب المصرى الكريم .

(جـ) والعهد الثالث العهد الثورى ويبدأ من ٣٠ شوال ١٣٧١ هـ (٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) حتى اليوم ، وقد تجددت فيه معالم مصر ونهضتها تجدداً كبيراً ، وطرد فاروق من مصر فى ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ هـ (٢٦ يوليو ١٩٥٢) ، وأعلنت الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣

التقسيم الأدبى لهذا العصر :

ونحن فى هذه الدراسات نقسم أدبيًّا العصر الحديث لمصر الخالدة إلى ثلاثة عهود كذلك :

ا ـ العهد الأول من الحملة الفرنسية إلى قيام الثورة العرابية أى من ١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٨ م إلى ١٢٩٩ هـ — ١٨٨٢ م(١) .

ب ـ العهد الثانى من الثور العرابية عام ١٢٩٩ هـ : ١٨٨٢ م : حتى وفاة شوقى وحافظ عام ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢

ولقد كان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد نديم قادة التفكير والقلم فى هذه الثورة ، واستأنفت الحركة الفكرية سيرها الذى قطعته الحوادث ، وبدت طلائع نهضة جديدة فى الآداب العربية ، وظهر فى الإنتاج الأدبى يومئذ عنصر قوى من الأدب المبتكر ، وأخذت فى نفس الوقت عناصر الثقافة الجديدة تحدث أثرها فى إنتاج الجيل الجديد ، وظهرت طائفة من المؤلفات والكتابات القومية التى تحررت من أغلال القديم سواء فى اللفظ أو المعنى ، وحملت هذه الروح الجديدة فى طريقها كل شىء ، وغدت أقوى دعامة فى صرح النهضة ، وقويت الحاجة إلى الصحافة وظهر عبد الله نديم بجريدته « التنكيت والتبكيت » ، إلا أن النديم

أبدل الإسم فى آخر لحظة باسم «الطائف» تيمنا باسم مدينة الطائف فى الحجاز ، نظرا إلى أنها تطوف بأرجاء الدنيا ، كما كانت « الجوائب » التى يصدرها أحمد فارس الشدياق باستامبول تجوب أرجاء العالم . واتخذ رجال الثورة « الطائف » لسان حالهم ، فكانت تذيع المنشورات والأوامر وتحض على الجهاد ، وكانت تطبع من داخل معسكر كفر الدوار .

وإلى جانب الطائف صدرت عدة صحف للثورة منها :

المفيد للسيد أمين الشمسى ، والزمان ، والاعتدال ، وغيرها .

وكان الشيخ حسن العـــدوى ، والشيخ عليش المصرى رضى الله عنهما ، من زعماء الثورة العرابية العاملين . وقد لقيا فى جهادهما مع عرابى عناء وبلاء ، انتهى بنفى الشيخ حسن العدوى إلى بلدته (العدوة بمغاغة) حتى مات ، وحددت إقامة الشيخ عليش شيخ المـالكية وقتئذ ، فكان يسفر بينهمـا فى معتقليهما تلميذهما وأخوهما البار المجاهد سيدى الشيخ محمود أبو عليان الشاذلى البصيلى الذى ورث دعوتهما العلميـــة ، والصوفية ، وملأ بهـا القطر من منبع النيـــل إلى مصبه ، وبقيت دعوته تتبلور حتى أدركت مبلغها ذاك بنعمة الله .

وكان الشيخ العدوى خطيب الثورة العرابية العالم ، وكان الشيخ عليش كاتبها الأزهرى ، وكلاهما كان فى عهد الشيخ العباسى ، الذى تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى .

وممن عاصر الثورة العرابية واشترك فيها السيدان البليغان الجليلان الشيخ أحمد القاياتى (والد المرحوم الشيخ مصطفى القاياتى المشهور) والشيخ محمد القاياتى (والد المرحوم الشيخ عبدالعظيم القاياتى) ، وكلاهما كان معتقلا بالشام مع المرحوم الشيخ محمد عبده على أثر هذه الحركة .

ولم يقبل الشيخ القاياتى أعطية الخديوى توفيق التى عرضها عليه من الأطيان وردها برفق .

جـ ـ العهد الثالث ما بعد عصر شوقى وحافظ حتى اليوم ، وفى أواخره شهدت مصر انتهاء حكم أسرة محمد على وقيام الجمهورية فى مصر ، وقد قامت الثورة المصرية العسكرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وتوالت أحداث الثورة ، فأجبر فاروق على التنازل

عن العرش لابنه أحمد فؤاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وألف محمد نجيب وزارته الأولى فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ثم وقعت اتفاقية السودان بين مصر وانجلترا فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، وأعلنت الجمهورية وانتهى حكم أسرة محمد على رسميا من مصر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ ؛ وألفت وزارة السيد جمال عبد الناصر بعد ذلك .

وقد بدأ الأدب فى مصر منذ قيام الثورة يتجدد ، وتظهر روح الثورة فيه ، ولا تزال عوامل التجدد تظهر يوما بعد يوم .



التاريخ الادبى لمصر الحديثة

فى الفترة الأولى (١٧٩٨ - ١٨٨٢ م)

تمهيـــد :

١ — فى هذه الفترة انتصرت مصر انتصارات وطنية رائعة : انتصرت على حكامها الفعليين من المماليك وألزمتهم بدستور مكتوب منصوص فيه على حقوق الإنسان الأولى المستمدة من قومية مصر وتقاليدها ودينها الحنيف ، وكان ذلك قبيل الحملة الفرنسية بقليل ، وانتصرت على فرنسا داخل أرضها ، فطردت الغزاة الفرنسيين من بلادها لتعيش كما عاشت حرة مستقلة ذات كرامة وسيادة ، وانتصرت حين قررت مبدأ حق الشعب فى أن يختار وكلاءه بالنيابة عنه وهم - علماء الأزهر الشريف فى ذلك الحين الحاكم الذى يريدونه وذلك عام ١٨٠٥ م ، وانتصرت حين طردت الغزاة الإنجليز وهزمتهم فى رشيد عام ١٨٠٧ م ؛ ثم حقق أبناؤها انتصارات عسكرية رائعة فى كل مكان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتز لها العالم ، ودوى بذكرها التاريخ ، وفى هذه الفترة نهضت قوة مصر العسكرية نهضة قوية جبارة ، وأنشىء لمصر أسطول قوى ضخم ، كما أنشئت المصانع الحربية العديدة فى عهد محمد على وحفيده إسماعيل .

٢ — وفيها بدأ النظام البرلمانى يطبق فى مصر فكون نابليون فى القاهرة ديوانا وطنيا كان أعضاؤه من كبار علماء الأزهر الشريف ، وهم الممثلون الحقيقيون للشعب المصرى ، وأنشىء الديوان العالى والمجلس الخصوصى ومجلس المشورة فى عهد محمد على ، ثم أعيد مجلس المشورة فى عهد إسماعيل وسمى « مجلس شورى النواب » وقد افتتح لأول مرة فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م ، وأعيد المجلس الخصوصى ووكل إليه إسماعيل فحص جميع مشروعاته وكان فى الغالب يرأس جلساته بنفسه ولم يشارك الخديوى فى السلطة إلا فى أواخر عهده منذ ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ م ، عندما أنشىء لمصر أول مجلس نظار .. هذا مع السلطات المطلقة

للحاكم ، والتي لم يقيدها قانون مكتوب أو غير مكتوب .

٣ — وفي هذه الفترة بدأت مصر تظهر في الميدان الدولي دولة معترفاً بها ، مستقلة استقلالا داخلياً تابعة للخلافة العثمانية رسمياً ، وبمقتضى (فرمان فبراير سنة ١٨٤١) صار حكام مصر يختارهم الخليفة العثماني من بين أفراد أسرة محمد علي وفرضت جزية تؤديها مصر إلى خزانة الدولة العثمانية (١) ، وبذلك نالت مصر استقلالا مقيداً ببقاء السيادة التركية . . وفتحت مصر السودان وأصبح حلم الوحدة بين شطري الوادي شماله وجنوبه أمراً حقيقياً واقعا ، كما دخل في حكم مصر في عهد إسماعيل أجزاء كثيرة من شرق أفريقيا ، منها هرر وزيلع والصومال وأرتيريا .

٤ — وفي هذه الفترة تطورت مصر اقتصادياً إلى حد كبير في ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وأقيمت الجسور والترع والقناطر ، ومن أهمها القناطر الخيرية التي بدىء العمل فيها عام ١٨٣٣م ، ثم أوقف بعد قليل ، واستؤنف عام ١٨٤٣ وتمت في عهد سعيد عام ١٨٦١ م . وكذلك مدت في مصر الخطوط الحديدية . ودخل فيها نظام البريد والتليفون والتلغراف ، وكان بدء تأسيس إدارة البريد سنة ١٨٦٥ ، وقبلت مصر عضواً في اتحاد البريد الدولي عام ١٨٧٤ ، وكذلك شقت قناة السويس لتحقيق الأغراض الاستعمارية للدول الكبرى وخاصة فرنسا وانجلترا ، وقد بدىء في حفرها في عهد سعيد عام ١٨٥٩ ، وافتتحت في عهد إسماعيل ؛ وللأسف سارت أسرة محمد علي في ركاب الإستعمار الغربي ، حتى انتهى الأمر باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ م ؛ وقد بلغ عدد السكان في عهد اسماعيل نحو خمسة ملايين ونصف .

٥ — وفي هذه الفترة وضحت معالم القومية والنهضة المصرية ، وقدساير حكام مصر النهضة الأوربية ، وزادوا من الاتصال بالمدنية الغربية اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً ، ودخلت النظم الحديثة في مصر ، وانتشرت أدوات المدنية

---

(١) نص عليها في فرمان ١٨٤١ ، فحددت بمقدار ٣٢٠ ألفاً من الجنيهات ، وقد رفعها إسماعيل عام ١٨٦٦ إلى ستمائة ألف من الجنيهات في مقابل حصوله على فرمان آخر من الخليفة صار بمقتضاه حاكم مصر ، يختار من أكبر أنجال الوالي ، ثم رفعها اسماعيل عام ١٨٧٣ إلى ٦٥٠ ألف جنيه نظير تمتعه ببعض السيادة في الشئون الخارجية .

الغربية ، وتطورت أدوات الصناعة والزراعة وأسباب التجارة ، ومنعت تجارة الرقيق ، ودخلت مصر فى طور جديد من حياتها الإجتماعية .

٦ — ومن الأحداث المهمة فى هذه الفترة شق قناة السويس فى ١٧ نوفبر عام ١٨٦٩ وقد أخذ دلسبس امتياز حفرها فأصدر محمد سعيد والى مصر أول فرمان يخول لمسيو فرديناند دلسبس شق قناة السويس فى ٢٠ نوفبر سنة ١٨٥٤ ويزعم أن هذا الفرمان عدل بعدئذ مرتين فى سنة ١٨٥٦ وسنة ١٩٢٣ ، حيث لم يعد هو المعول عليه عملياً إلا أن قيمته التاريخية لاتزال ثابتة . وجاء فيه :

« حيث ان صديقنا مسيو فرديناند دلسبس قد لفت نظرنا إلى الفوائد التى تعود على مصر من توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة طريق ملاحى للبواخر الكبرى ، وأخبرنا عن إمكان تكوين شركة لهـــذا الغرض ، من اصحاب رؤوس الأموال فى جميع الدول ، فقد قبلنا الفكرة التى عرضها علينا ، وأعطيناه بموجب هذا تفويضاً خاصاً لإنشاء شركة عالمية لحفر برزخ السويس :

البند الأول : يؤلف مسيو فرديناند دلسبس شركة ، تسند إليه رئاستها وتسمى باسم « الشركة العالمية البحرية لقناة السويس » ، وتكون مهمتها حفر برزخ السويس ، وإنشاء ممر مناسب للملاحة الكبرى ، وتأسيس مدخلين كافيين أحدهما على البحر الأبيض والآخر على البحر الأحمر ، وإنشاء ميناء أو ميناءين .

البند الثانى : يعين مدير الشركة دائماً بمعرفة الحكومة المصرية ، ويصير اختياره بقدر المستطاع من المساهمين الذين لهم أكبر نصيب فى المنشأة .

البند الثالث : أجل الامتياز هو تسعة وتسعون عاماً تبتدىء من يوم افتتاح قناة البحرين .

البند الرابع : تدفع الشركة جميع المصاريف والنفقات ، وتعطى لهـا جميع الأراضى اللازمة للمشروع والتى ليست مملوكة للأفراد ، أما أعمال التحصينات التى ترى الحكومة ضرورة إنشائها فتلتزم الشركة بنفقاتها .

البند الخامس : تتسلم الحكومة المصرية سنويا من الشركة حصة قدرها ١٥ ٪ من صافى أرباح الشركة بحيث لا يمس هذا حق الحكومة المصرية فى الحصول على نصيبها من أرباح الأسهم التى تشتريها ، وبعد خصم الخمسة عشر فى المائة المستحقة

للحكومة ، توزع باق الأرباح كما يأتى : ٧٥٪ للشركة ، و١٠٪ للأعضاء المؤسسين .

البند السادس : توضع رسوم المرور فى قنـــاة السويس دائما بالإتفاق بين الشركة ووالى مصر ، وتحصل هذه التعريفة بمعرفة عمال الشركة على أساس المساواة فى المعاملة بالنسبة لجميع الأجناس من غير تمييز لدولة على أخرى ... ويأتى بعد ذلك البندان السابع والثامن وهما خاصان بشق ترعة حلوة تتصـــــل بقناة السويس .

البند التاسع : للشركة صاحبة الامتياز الحق فى استخراج جميع المواد اللازمة لاعمال القناة والمبانى التى ستكون تابعة لها من المناجم والمحاجر المملوكة للدولة ، وذلك دون دفع رسوم .

البند العاشر : عند انتهاء مدة الامتياز تحل الحكومة المصرية محل الشركة وتتمتع بجميع ما للشركة من الحقوق بدون أى تحفظ . . وقد مر مشروع هذه القناة بأطوار عديدة : فنى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ أرسل دليسبس إلى قنصل هولاندا بالاسكندرية يخبره برفض عباس باشا والى مصر والدولة العلية مشروعه لحفر قناة السويس ، وقنصل هولاندا هذا كان ساعد دلسبس القوى فى مشروع القنال .

وفى ٧ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وصل دلسبس إلى الاسكندرية واستقبله حافظ باشا ناظر البحرية من قبل سعيد باشا .

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٥٤ خلا ذو الفقار باشا بمسيو دلسبس ، وحدثه فى موضوع القنال .

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٤ قدم دلسبس مذكرة إلى سعيد باشا ، وقبل سعيد باشا مشروع حفر القنال .

وفى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وصل دلسبس إلى القاهرة ، ونزل ضيفاً على سعيد فى المنزل الذى كان معداً لسكنى العلماء الذين رافقوا بونابرت فى حملته على مصر .

وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٥٤ أقيمت حفلة التشريفات بالقلعة واستقبل سعيد باشا قناصل الدول ، وأخطرهم بعزمه على حفر القناة . وفيها جلس سعيد باشا على ذات الديوان الذى كان جالساً عليه والده محمد على من قبل ، ومنه قص على دلسبس حكاية مذبحة المماليك .

وفى ٣٠ نوفمبر سنة ١٥٤٨ أمضى سعيد باشا فرمان الامتياز .

وفى ١٨ نوفبر سنة ١٨٥٥ وصلت اللجنة الدولية ، المؤلفة من كبار المهندسين الإنجليز والألمان والفرنساويين تحت رئاسة دلسبس للتحقق من أمر إمكان أو عدم إمكان حفر قناة السويس .

وفى ٢٣ نوفبر سنة ١٨٥٥ قدم دلسبس أعضاء لجنة المهندسين إلى سعيد باشا واحتفى بهم سعيد احتفاء عظيما ، ولما قال له دلسبس : إنه احتفى بهم احتفاءه بالرؤوس المتوجة ، أجابه سعيد : يجب أن أحتفى بهم أنا أيضاً لأن العلم توج رؤوسهم .

وفى ١٥ نوفبر سنة ١٨٥٨ بدأ الاكتتاب فى أسهم شركة القنال ، وقد خص فرنسا ٢٠٧١١١ سهما ، وتركيا ٩٥٥١٧ وإيطاليا ١٥١

وفى ٥ نوفبر سنة ١٨٥٩ اجتمعت أول جمعية عمومية للمؤسسين .

وفى ١٥ نوفبر سنة ١٨٦٠ وصلت أعمال الحفر إلى بحيرة التمساح ، وجرت المياه ، وسارت المراكب ، وأقيم مهرجان عظيم حضره دلسبس وأمراء مصر وكبراؤها وعلماؤها ، وخطب دلسبس بالنيابة عن سعيد باشا قائلا: بالنيابة عن سعيد باشا أعلن دخول مياه البحر الأبيض فى بحيرة التمساح .

وفى ١ نوفبر سنة ١٨٦٩ فتح القنال ، واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر .

وفى ١٧ نوفبر سنة ١٨٦٩ أقيم مهرجان افتتاح قنال السويس ، وقد بلغت نفقات الحفلات ١٤٠٠٠٠٠ جنيه . وكان من نتائج حفر قنال السويس : إنشاء مدينة بور سعيد ، ومدينة الإسماعيلية ، ومدن بور توفيق ، وبور فؤاد ، وبور إبراهيم . وبدء سريان مدة الامتياز .

وفى ٢٥ نوفبر سنة ١٨٧٥ بيعت أسهم مصر إلى انجلترا ، وعددها ١٧٦٦٠٢ من ٤٠٠٠٠٠ بمبلغ أربعة ملايين جنيه .

وفى ١٦ نوفبر سنة ١٩٦٨ ينتهى أجل الامتياز .

حياة مصر الثقافية فى هذه الفترة

تمهيـــد

صحبت الحملة الفرنسية على مصر بعثة علمية فى شتى فروع الثقافة مكونة من ثمانية وأربعين عالما ، من بينهم : المهندس ، والطبيب ، والمؤرخ ، والفلكى ، والرياضى والطبيعى ، والكيمائى ، وقد بدأ هؤلاء بعد استقرار الحال ، وانتهاء الفتح يعملون ، فاتخذوا دور الأمراء بالدرب الجديد بحى السيدة زينب بالناصرية معاهد لبحوثهم ، وأنشئوا بها مكتبة رتبوا فيها كتبهم بلغتهم ، وما وقع فى أيديهم من كتب عربية ، وأعدوا فيها قاعة للمطالعة ، وجعلوا يستدرجون المصريين لحضورها ، ويطلعونهم على ما بها من كتب بالفرنسية وقد صوروا أيام إقامتهم بمصر أكابر علماء الأزهر الذين كونوا منهم الديوان الخصوصى الذى وكلوا إليه النظر فى أمر المصريين وأقضيتهم ، ومن هؤلاء المشايخ : خليل البكرى ، وعبدالله الشرقاوى المتوفى عام ١٨١٢ ، ومحمد المهدى ، وسليمان الفيومى .

وقد وصف الجبرتى موضع مكتبة الفرنسيين بقوله : «فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختات عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر» . وما كان أشد دهشة المصريين حين دخلوا معامل الطبيعة والكيمياء ، فيرون فيها شبه السحر يجرى على أيدى هؤلاء العلماء . وقد وصف الجبرتى ما يجرونه من تجارب طبيعية وكيمياتية بقوله : «ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب فيها شيئاً فى كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعـــلا الماء ، وصعد منه دخان ملون ، حتى انقطع

وجف مافى الكأس ، وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأدخلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى إحداهما . وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس . وفرقع بصوت هائل أيضاً .

وقد كان مع الفرنسيين مطبعة كاملة بحروف عربية وفرنسية ، كانوا يطبعون بها الأنباء اليومية وأوامرهم الرسمية فى صحيفة عربية ، سموها « التنبيه » ، وكانت أول صحيفة باللغة العربية فى مصر والبلاد العربية ، وكان بدء صدورها عام ١٧٩٩ م وكان يشرف على تحريرها شاعر مصر إسماعيل بن سعد الخشاب ، المتوفى عام ١٨١٥ م ، وقد أغلقت هذه الصحيفة بعد خروجهم من مصر عام ١٢١٦ هـ — ١٨٠١ م ، ولم تظهر فى مصر بعد ذلك صحيفة أخرى إلا عام ١٨٢٨ م حيث أخرج محمد على الوقائع المصرية .

كانت البعثة العلمية الفرنسية مكونة من ثمانية وأربعين عالما فرنسيا : ربعهم للرياضيات والثانى للطبيعيات والثالث للاقتصاد السياسى والرابع للآداب ، وقد عهد برياستها إلى مسيو منج ، وبوكالتها إلى بونابرت نفسه ، وكانت تؤلف البعثة المجمع العلمى الذى كونه بونابرت « لنشر العلم والمدنية بمصر ، والتنقيب عن الآثار ودرس الأخلاق ... الخ » كما جاء فى قانونه ، واتخذوا لمثواه منزل حسن شركس فى الدرب الجديد بالسيدة ، وكان ينشر المجمع كل ثلاثة أشهر نشرة يضمنها بحوثه ثم نشر صفوتها بعد ذلك فى أربع مجلدات ، كما نشر هؤلاء العلماء كتابا نفيسا عن مصر وقع فى مجلدات كثيرة ، وبخروج الفرنسيين من مصر أغلق هذا المعهد حتى عام ١٨٥٩ ، ففيها بعثه من جديد لفيف من الفرنسيين فى الإسكندرية ، ثم نقل إلى القاهرة ، وداره قائمة الآن فى حى المنيرة ومعه كلية الحقوق الفرنسية .

حركة التعليم فى مصر فى القرن التاسع عشر :

١ — فى بدء القرن التاسع عشر عنى محمد على بنشر التعليم فى مصر ، ليسد حاجات جيشه الكثيرة ، فأنشأ المدرسة التجهيزية الحربية فى قصر ابن العينى حيث كلية طب جامعة القاهرة الآن ، ثم مدرسة أركان الحرب فى أبى زعبل ، وأوفد عام ١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ م بعثة عسكرية إلى إيطاليا ، وفى عام ١٢٣٣ هـ — ١٨١٨ م أوفد بعثة أخرى لدراسة (علم الميكانيكا) ، وأنشأ مدرسة طب كبيرة فى جهة أبى زعبل عام ١٢٤٢ هـ — ١٨٢٦ م ومستشفى كبيرا لمعالجة المرضى ولاستكمال الجانب العملى فى الدراسة الطبية فى مدرسة الطب ، ورأس هذه المدرسة « كلوت بك الفرنسى » الطبيب بالجيش المصرى ، ونقلت أخيرا مدرسة الطب فى قصر ابن العينى عام ١٨٣٨ م ، وكان أغلب أساتذة هذه المدارس من الفرنسيين ، وكان التفاهم بينهم وبين الطلاب عن طريق المترجمين . وبعث محمد على عدة بعثات علمية إلى أوربا بلغ عدد طلابها ٣٠٩ طالبا — وأولى هذه البعثات بعث بها محمد على إلى باريس عام ١٢٤٢ هـ - ١٨٢٦ م لطلب العلوم المختلفة العسكرية والسياسية والطبية والكيمياء والزراعة ، وثانيتها ، عام ١٨٤٢ هـ وأنشأ فى باريس مدرسة لطلاب البعثات المصريين ، كان فيها نحو أربعين منهم بعض أولاده وأحفاده .

وأنشأ محمد على فى مصر كذلك العديد من المدارس الإبتدائية والتجهيزية ، والخاصة التى كان من بينها مدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة والصناعات والألسن ، وأنشأ إدارة تشرف على هذه المدارس عام ١٨٣٩ سميت : « ديوان المدارس » وكان رئيسه مصطفى مختار من أعضاء البعثة الأولى ، ومن أعضاء الديوان : رفاعة بك ومحمد بيومى وسواهم ، وكان عدد المدارس التى أنشأها محمد على خمسين مدرسة ، وعدد طلاب البعوث فى عهده نحو ثلاثمائة .

٢ — وقد عطلت هذه الحركة العلمية بعد عهد محمد على ، فأغلق عباس الأول هذه المدارس ، وتخلص من بعض كبار رجال التعليم مثل رفاعة بك الذى أرسله إلى السودان ، وكان من رأيه أن ينصرف المصريون إلى فلاحة الأرض واستغلالها ، واستمر التعليم معطلا كذلك فى عهد سعيد لأنه كره تعليم الشعب ، وكان يعتقد أن الأمة الجاهلة أسلس قيادا من الأمة المتعلمة ، فألغى ديوان المدارس ، وصارت ميزانية

التعليم عام ١٨٦٢ نحو ستة آلاف من الجنيهات . . ولكن إسماعيل عنى بالتعليم عناية قريبة من عناية جده ، وبلغت ميزانية التعليم فى عهده نحو ١٥٠ ألف جنيه .

ومن المدارس التى أنشأها إسماعيل مدرسة الحقوق ، ومدرسة الهندسة سنة ١٨٦٦ م ، ومدرسة الإدارة سنة ١٨٦٨ م وهى التى صارت فيما بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢م ، ومدارس أخرى كثيرة ابتدائية وثانوية وعالية ، وأنشأ كذلك مدرسة للبنات تحت رعاية إحدى زوجاته . ومن دلائل العناية بالمدارس وتظامها ذلك القانون الذى صدر فى ١٠ من رجب سنة ١٢٨٤ هـ — ١٨٦٨ م ، وكان الغرض منه وضع أساس قويم لتنظيم التعليم . ولقد عالج هذا القانون أكثر المسائل التى كانت تتجه اليها العناية فى وزارة المعارف بين رجال التعليم . ومع ذلك ، وإلى جانب العنـــاية بالمدارس وجه الاهتمام إلى إلى البعوث العلميـة ، فأعاد إليها كثيراً من علماء أوروبا ليستعين بهم على ترقية البلاد وتنظيمها فى جميع النواحى ، ولقد كان كل هـــذا من أسباب تشجيع الأوربيين على الرحيـل إلى مصر أو الإقامة فيها ، وزيادة الصلة بين مصر وأوربا . ولـكل هـذا أثره العظيم فى رقى البلاد ووصولها إلى المكانة التى وصلت إليها .

ومن المدارس العالية التى أنشأها : مدرسة دار العلوم . فلقد قام المرحوم على مبارك باشا بتأسيس مدرسة يتجرد طلابها فى دراسة علوم العربيـة ، مع الأخذ بحظ من العلوم الدينية والعقلية ، وصدر من العلوم الحديثة ، ليعلموا العربية فى المدارس على أسلوب يسير مع حاجة العصر ووسائله فى التربية والتعليم . ولقد تم له ما أراد ، وفتحت مدرسة دار العلوم فى ١٥ صفر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) واختير لها التلاميذ من متقدمى طلبة الأزهر ، كما اصطفى لها الأساتذة من كبار شيوخه ومن غيرهم ممن عرفت لهم البراعة فى العلوم الحديثة

ولقد آتت هذه المدرسة خير الثمار بما يسر أفاضل خريجيها من وسائل تعليم العربية . وإشاعة صحيحها ، وبعث قديم أدبها . وإطلاق الألسن والأقلام بناصع القول وروائع البيان .

أثر المطابع فى الحياة الثقافية :

١ — بعد المطبعة التى كانت مع جيش نابليون فى القاهرة لم تعرف مصر المطابع إلا عام ١٨٢١ حين أنشأ محمد على مطبعة بولاق الأهلية (المطبعة الأميرية الآن) وقد طبع بها كثير من الكتب الدراسية ، وطائفة مع معاجم اللغة وكتب الدين والأدب وبعض الكتب التركية والفارسية والافرنجية . وصحيفة الوقائع المصرية التى أنشئت عام ١٨٢٨ ، وهذه المطبعة كانت النواة الأولى لقيام المطابع فى مصر .

ومن أهم الكتب المطبوعة التى جددت حياة اللغة والأدب كتب المعجمات مثل : الصحاح والقاموس وشرحه ، ولسان العرب ، والمخصص ، وكتب الأدب مثل : الأغانى ، والعقد الفريد ، والكامل للمبرد ، والمقامات للحريرى ، والبديع ، وأمالى القالى ، وصبح الأعشى ، ودواوين الشعر ، والرسائل الكثيرة ، وأمهات كتب التاريخ : كالطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلدون ومقدمته الجليلة ذات الأثر البين فى الأدب والكتابة فى العصر الحاضر ، ونفح الطيب وغيرها .

وكانت حروفها على قاعدة نسخية وفارسية من حجوم مختلفة ، فطبعت ابتداء بعض الكتب التركية والفارسية ، ثم أخذت فى طبع نحو ثلثمائة كتاب من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية فى العلوم الحديثة : كالرياضيات ، والطبيعيات ، والطب والجراحة . أما الكتب الأدبية فتأخر طبعها قليلا ، ومن أول ماطبع منها : كليلة ودمنة وخزانة الأدب الكبرى للبغدادى ومقدمة ابن خلدون ومقامات الحريرى وتفسير الرازى والقاموس والأغانى .

ثم فشت المطابع فى الشام على أيدى رؤساء الرهبانيات والدعاة ، وطبعت أولا كتبها الدينية ثم بعض كتب أدبية ، وظهرت بعد هذا الوقت دار الطباعة العامرة بالقسطنطينية ، فطبعت كثيراً من الكتب الشرقية والفارسية ، ثم طبعت بعد كتباً كثيرة فى الفقه والنحو والصرف والبلاغة والفلسفة والأصول والكلام ، وغير ذلك .

ثم شرع كثير من المصريين يحاكون حروف مطبعة بولاق ، وأنشئوا مطابع عدة بالقاهرة والإسكندرية سهلت طرق العلم على الطلبة .

٢ ـ ولقد كان مطلع القرن الخامس عشر للميلاد بدء تطور جديد في العلم إذ وصل العالم إلى اختراع الطباعة بعد تجارب ومحاولات عدة سبقت الوصول إلى هذه الغاية العظمى، فقلبت الطباعة وجه الأرض وغيرت ما عليها ودفعت الحضارة دفعاً عنيفاً جعل تقدمها عدوا وقفزا بعد أن كان مشياً هيناً، وسيراً بطيئاً .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الصينيين قد سبقوا الأمم إلى استخدام الطباعة في إخراج كتبهم في القرن السادس ولكنها لم تنتشر عندهم قبل القرن العاشر، ففي سنة ٩٣٢ م التمس وزيران من امبراطور الصين أن يأمر بتصحيح بعض كتبهم وطبعها وقد كان ، وتم طبع أكثر مؤلفاتهم الأدبية في ذلك العصر .

وكانت طريقة الطباعة وقتئذ تتلخص في أنهم يكتبون ما يريدون طبعه على ورق ويلقون الوجه المكتوب على لوحة من الخشب صابة ملساء السطح وينقلون حبر الكتابة بواسطة الضغط من صفحة الورق إلى لوحة الخشب ويحفرون ما لم يصبه الحبر فتبقى الكلمات بارزة ، فيضعون الحبر على سطحها ويلقون فوقه القرطاس ثم يمسحون باليد ظهره ؛ وكانوا يطبعون في الغالب مؤلفاتهم على وجـــه واحد تاركين الوجه الآخر أبيض خاليا من الطبع ، وعندهم إلى الآن كتب مطبوعة على هذا المثال من عهد ملوكهم من عائلة سنغ (٩٦٠ — ١٢٧٩) .

واختلف المؤرخون فيمن اخـــترع طريقة الطبع بالحروف المتفرقة فزعم الهولنديون أنه « لورنس كوستر » وكانت وفاته عام ١٤٣٢ للميلاد وان « غوتنبرج » الألماني كان أحد العمال عنده وأخذ الاختراع وادعاه لنفسه ، وقال بعضهم إن مخترع الطبع بالحروف المتفرقة إنما هو « حنا فوست » ، وقال غيرهم إنه « بطرس شوفر » وذهب آخرون إلى أنه « جان غوتنبرج » وتشيع لهذا الرأي الكثيرون ، وقد توفي « جان » هذا في بلدة « منتس » عام ١٤٦٨ .

وبدأ الإيطاليون باستخدام الطباعة سنة ١٤٦٥ في سوبياكو ، وفي سنة ١٤٦٩ أنشئت المطابع في باريس وفي ميلانو والبندقية ودخل فن الطباعة انجلترا في سنة ١٤٧٤ واسبانيا سنة ١٤٧٥ ، ومازالت المطابع تنتشر في أنحاء أوربا حتى بلغ عددها سنة ١٥٠٠ نحو ٢٠٠ مطبعة فيكون بذلك القرن الخامس عشر هو قرن الفتح العلمي باختراع الطباعة .

٣ ـ أما المطبوعات العربية فأقدم المعروف منها كتاب (مزامير داود) طبع في جنوا

سنة ١٥١٦ ثم التوراة ترجمة سعيد الفيومى طبعها الإسرائيليون فى الآستانة سنة ١٥٥١ وطبع الإنجيل فى روما سنة ١٥٩١ ، وفيها طبع قانون ابن سينا سنة ١٥٩٣ وطبع القرآن الكريم فى همبورج سنة ١٦٩٤ وطبع فى الآستانة كتاب صحاح الجوهرى مترجما إلى التركية سنة ١٧٢٩ أوسنة ١٧٣٠ ، وطبع فى كلكتا بالهند كتاب نجوم الفرقان سنة ١٨١٢ وكتاب فتوح الشام سنة ١٨٥٥ .

وكانت أقدم مطبعة فى مصر المطبعة التى استصحبها نابليون الأول سنة ١٧٩٨ لطبع أوامره ومنشوراته ثم أسس محمدعلى مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ ومن ثم ذاعت المطابع وانتشرت فى مصر وفى بلادالشرق ، وقد خصص مسيو موريس الذى كان مديراً لدار الكتب المصرية مكانا أفرده لما وصل إليه من قديم الكتب فى عصر الطباعة الأول .

الصحافة فى مصر وأثرها فى الثقافة :

١ ـ أول جريدة أنشئت فى مصر هى التى أنشأها نابليون بونابرت باللغة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ وهى التى نشرت بعد صدورها بنحو أسبوعين خبر العثور على حجر رشيد ، ومنها وصل الخبر إلى علماء أوربا .

وبعد شهر واحد من إنشاء هذه الجريدة الأولى ، أنشأ نابليون جريدة ثانية باللغة الفرنسية أيضاً كانت تصدر كل عشرة أيام .

وكانت الأولى إخبارية ، سياسية ، أما الثانية فكانت علمية تنشر محاضر أعمال المجتمع العلمى الذى أسسه بونابرت .

وبعد ذلك أسس محمد على جريدة «الوقائع المصرية» نحو سنة ١٨٢٨ فيكون قد مضى عليها إلى الآن أكثر من قرن وربع القرن ، فهى بهذا أقدم الجرائد العربية فى مصر وفى الشرق عامة ، وانقضت بعد إنشاء «الوقائع المصرية» خمس وثلاثون سنة لم يبعث فيها وجود هذه الجريدة الرسمية فى نفوس المصريين رغبة فى إصدار جريدة أهلية ، وجاء عهد الخديوى إسماعيل باشا فتحركت بتشجيعه هذه الرغبة فى النفوس ، فظهرت مجلة «اليعسوب» فى سنة ١٨٦٥ وكانت طبية أنشأها الدكتور محمد على البقلى باشا وإبراهيم الدسوقى ، وقدتلتها فى سنة ١٨٦٧ أول جريدة سياسية هى «وادى النيل» لمنشئها عبدالله أبوالسعود أفندى وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع

ثم جريدة « نزهة الأفكار » فى سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، ثم مجلة « روضة المدارس » فى سنة ١٨٧٠ أنشأها على مبارك باشا حينما كان وزيراً للمعارف ، وكان يتولى التحرير فيها كثير من الأعلام منهم : على مبارك باشا ، وعبد الله فكرى باشا ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حسين المرصفى ، ورفاعه بك رافع ، ومحمود باشا الفلكى ، ومحمد قدرى باشا ، والشيخ حمزة فتح الله .

وفى سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة « الوطن » ثم جريدة « مصر » وكان السيد جمال الدين الأفغانى يكتب فيهما بعض رسائله ، ويطول الشرح إذا نحن أردنا أن نذكر جميع الجرائد التى صدرت فى عهد إسماعيل ، فنكتفى بأن نذكر منها جريدة « الكوكب الشرق » لسليم باشا الحوى وجريدة « الأهرام » لمؤسسها سليم تقلا وأخيه بشارة تقلا ، وقد صدرت فى سنة ١٨٧٥ فى الإسكندرية ، وكانت فى أول ظهورها أسبوعية ، ثم صدرت بجانبها جريدة « صدى الأهرام » اليومية ، ثم عطلت هذه وبقيت « الأهرام » وانتقلت بعد الثورة العرابية إلى القاهرة وهى تصدر إلى اليوم ، ونذكر أيضاً جريدة « أبو نضارة » وقد صدرت فى سنة ١٨٧٧ لصاحبها الشيخ يعقوب صنوع المصرى الإسرائيلى ، وهى أول جريدة سياسية هزلية مصورة .

٢ ـ وقد انتشرت الصحافة فى العالم العربى ، فظهرت جريدة المبشر فى الجزائر سنة ١٨٤٧ وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وجريدة « الرائد التونسية » ، ومرآة الأحوال التى أنشأها رزق الله حسون الحلبى عام ١٨٤٩ فى الآستانة ، ثم أصدر اسكندر شلهوب فى الآستانة صحيفة « السلطنة » فى الآستانة عام عام ١٨٥٧ ، وخليل الخورى « حديقة الأخبار » بعد ذلك بعام ؛ وظهرت فى باريس صحيفة « برجيس باريس » لرشيد الدحداح ، و « الجوائب » فى الآستانة لأحمد فارس الشدياق سنة ١٨٦٠ ، و « الشركة الشهرية » فى بيروت ، وعطارد فى مرسيليا ؛ وقد بلغ عدد الصحف العربية عام ١٨٤٩ نحوا من ٢٧ صحيفة ، وتعددت الصحف العربية وخاصة فى مصر مهدها الأول ، حتى بلغ عدد الصحف فى مصر عام ١٩٠٠ نحواً من ١٦٧ صحيفة ما بين يومية وأسبوعية ونصف شهرية وشهرية ، وقد أخذ الأسلوب الصحفى فى الرقى التدريجى والازدهار والتخلص من العامية .

٣ ـ هذا ولا ننسى أن نقول إن الصحافة[1] عرفت قديما عند الصينيين قبل الميلاد بألف عام ، واتخذها الرومان قبل الميلاد بسبعة قرون ، ولم تظهر الصحافة بمعناها الحديث إلا فى أواسط القرن السادس عشر بعد اختراع المطبعة وعظم أمرها حتى أصبحت من عناصر الحضارة وعدت رابعة السلطات ، وللصحف أثرها الكبير فى رق الثقافة ، وتكوين الرأى العام ، وتعزيز سلطان الأمة .

ومن الصحف التى ظهرت فى مصر فى هذه الفترة كذلك : المحروسة سنة ١٨٨٠ وتعد مصر أسبق الدول العربية إلى إيجاد الصحافة ، أما تركيا فهى أسبقها من حيث تحقيق الغرض السياسى لإنشاء الصحافة ، ومجلة اليعسوب التى ظهرت فى مصر أول مجلة عربية فى العالم .

وكان لانتشار الصحافة فى مصر أثر فى رق النثر ونشر الثقافة وإتاحتها للشعب وخاصة الثقافة الأدبية ، والأساليب العربية التى تكتب فى الصحف كل يوم خير مدرسة لتلقين الأدباء وتخريجهم .

إنشـــاء دار الكتب :

كان من سنن الحضارة الاسلامية الاكثار من خزائن الكتب الكبيرة والصغيرة فى كل مدينة ، وكان لكل مسجد كبير خزانة كتب ، فكانت القراءة ميسورة لكل طالب فى كل حى وفى كل مسجد ، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن خزائن الكتب فى المدن الإسلامية القديمة فى المشرق والمغرب فهو حديث طويل ، وحسبك أن أبا تمام عوقه البرد فى همذان فوجد فى إحدى خزائنها ما يسر له اختيار حماسته ، وأن ياقوتا الحموى أقام فى مرو الشاهجان فأفاد من اثنتى عشرة خزانة بها ، فى كل واحدة آلاف المجلدات وهو يقول فى معجم البلدان : « فكنت أرتع بها ، وأقبس من فوائدها . وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد

---

(١) جمع صحيفة وهى : القرطاس المكتوب وهى من الكتاب الورقة بوجهيها ، وتطلق فى العرف الحديث على صحيفة مطبوعة تنشر الأنباء والآراء وتدعى جريدة أيضا إذا كانت تخرج كل يوم أو يومين ، أما المجلة فتظهر كل أسبوع أو أكثر فى شكل كراسة .

هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » ، هذه مرو الشاهجان ، فما ظنك ببغداد والقاهرة وقرطبة ؟ كانت قرطبة لاتخلو دار كبيرة فيها من خزانة كتب .

وكان فى الآستانة إلى عهد قريب زهاء أربعين خزانة ، فى كل جامع كبير واحدة ، وكثير منها يشرف على حدائق ، وتتهدل الأشجار عند منافذها . فليس يمل القارىء الجلوس بها ، ولا يزعجه عن القراءة لغو ولا جلبة . وقد يجلس المطالع فى مكتبة الفاتح فيود ألاّ تنتهى القراءة ولا ينتهى الوقت .

وقد كان فى القاهرة خزائن فرقتها يد الزمان العسراء ، ولعبت بها غيره الموج ، ثم جمعت بقية الأحداث منها فى دار الكتب المصرية ؛ ولإنشاء دار الكتب المصرية قصة طويلة فلقد فكر محمد على عام ١٢٣٥ هـ - ١٨١٩ م فى إنشاء « كتبخانة » فى القلعـــة ، وفى عام ١٢٦٧ - ١٨٥١ م حصر ديوان الأوقاف مكتبات المساجد وعين لها أمناء ، ثم سعى على مبارك باشا حتى استصدر أمرا من اسماعيل فى ٢٠ من ذى الحجة ١٢٨٦ هـ - ٢٣ مارس ١٨٧٠ بإنشاء « الكتبخانة الخديوية المصرية » ، لجمعت لها الكتب المفرقة فى المساجد وخزائن الأوقاف ومطبوعات مطبعة بولاق ، فكان نواة هذه الدار نحو عشرين ألف كتاب ، وقد ضمت إليها مكتبة مصطفى فاضل باشا شقيق اسماعيل .

كان مقر « الكتبخانة » عند إنشائها فى شارع درب الجماميز فى قصر مصطفى فاضل باشا حيث كانت المدارس الأميرية ودواوين المعارف . وبعد أن ضاق المكان بما أضيف اليه من كتب ، وخيف على المخطوطات أن تتلفها الرطوبة ، نقلت إلى دار ديوان المعارف . ولبثت فيه إلى أن تم إنشاء دار جديدة لها وللآثار العربية التى وضع أساسها سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م) ونقلت اليه سنة ١٩٠٤ م ولا تزال فيه إلى اليوم ، إلى أن يحين إنشاء مبنى فسيح لها يتناسب مع ثقافة البلاد ومركزها العلمى ، ويحقق لها بعض ماتصبو اليه منهما .

وما زالت مجموعة الكتب التى فى « الكتبخانة » تنمو بما يضم اليها بالشراء والهبة والوقف حتى صار مجموعها سنة ١٩٢٧ م ١٣٢٥١٩ مجلدا مابين عربى وغير عربى . منها ٦١٠٤٨ باللغة العربية ، واللغات الشرقية ، والباقى وهو ٧١٤٧١ باللغات الإفرنجية ، وقد صار هـذا المجموع سنة ١٩٣١ م ١٧٠٥٠١ منها ٧٨٤٨٠ باللغات الإفرنجية و ٩٢٠٢١ بالعربية ، وهذا خلاف ماضم إليها من مكتبة أحمد طلعت

باشا وتقدر بزهاء ٣٢ ألف مجلد ، ومكتبة أحمد تيمور باشا ، وتقدر بزهاء ١٨ ألف مجلد ، فمجموع ذلك الآن يقدر بربع مليون . حفظ الله هذه الدار من أيدى الغير وزاد فى مادتها ؛ ولضم مجموعة كتب المرحوم مصطفى فاضل باشا شقيق اسماعيل إلى الدار قصة ، فإنه لما توفى بالآستانة سنة ١٨٧٦ م صدر أمر بشراء مجموعته التى لا نظير لها بمبلغ ١٣ ألف جنيه عثمانى دفعها اسماعيل من ماله الخاص ، ثم أهداها إلى الكتبخانة ، وكانت ٣٤٥٨ مجلداً ، وكذلك ضم إلى الدار ٧٥٤ كتاباً وقفها المرحوم الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى ، وهى هناك باسمه ، وفى سنة ١٩١٠ م صدر أمر عال بإصلاح دار الكتب الخديوية ، وقد قضى الأمر بأن تكون ماليتها تابعة لوزارة المالية وإدارتها للمجلس الأعلى الذى يرأسه وزير المعارف ، وقد أصبح من حق هذا المجلس الإشراف على مشروع إحياء الآداب العربية الذى كان مجلس الوزراء قد قرره فى سنة ١٣٢٨ هـ ، سنة ١٩١٠ م ، وفى سنة ١٩٢١ م نقل القسم الأدبى ومطبعته من المطبعة الأميرية ، وجعل تابعاً لدار الكتب للقيام بنشر مطبوعاتها التى يقر المجلس نشرها .

ولقد كان إنشاء « دار الكتب المصرية » من أبلغ الأسباب التى ساعدت على نشر الثقافة فى مصر فى العصر الحديث : بما يسرت للشعب من مطالعة الكتب فى شتى العلوم والفنون والآداب ، وبما سهلت على الناشرين من استنساخ نفائس الكتب ، فضلا عن جهودها فى المحافظة على التراث العربى الإسلامى .

وهذا الجهد الكبير الذى بذل فى إنشاء دار الكتب المصرية ، بذل مثله كذلك فى إنشاء مكتبة الأزهر ، وكان الفضل فى ذلك للامام محمد عبده الذى عنى بمكتبة الأزهر وعمل على إنشائها كمكتبة لأكبر جامعة دينية فى العالم الإسلامى[1]

الترجمة والتأليف :

١ ـ عرفت مصر فى أول هذا العصر الترجمة العلمية ، وكان يقوم بها المترجمون فى مدرسة الطب بين الأساتيذ وتلاميذهم ، ولم تقتصر جهود هؤلاء المترجمين على ذلك ، بل قاموا بترجمة كثير من الكتب الطبية التى وضعها بعض أولئك

(١) راجع كتابى الأزهر فى ألف عام

الأساتذة الأوربيين فى اللغات الأوربية فى الطب والتشريح والطب البيطرى والصباغة ، والأقراباذين والفسيولوجيا ، وسوى ذلك . وقد ألفت لجنة لتقرير الكتب التى تترجم ، فإذا قرروا صلاحية كتاب ونفعه ، أمروا بترجمته فيعهدون بذلك إلى من يتولاه من المترجمين ، فإذا ترجم عهدوا بتنقيح عباراته إلى محرر عالم باللغة المنقول عنها ، وإلى عالم باللغة العربية ليقوم على طبعه ، محرراً ومصححاً ، وقد يقوم بهذه المهمة اثنان : محرر ومصحح ، والثانى من الأزهر دائما ؛ وذلك لأن النقلة فى أول الأمر ، لم يكونوا من أرباب الفنون التى ينقلونها مع أنهم فى الغالب كانوا غير متمكنين من اللغة العربية ومصطلحاتها العلمية ، وإنما استخدمهم محمد على تعجيلا لمشروعه ، وكان نقلهم لا يؤمن الخطأ فيه ، فكانوا يحتاجون إلى من يقرأ الترجمات والأصل بين يدى مؤلفها أو من يقوم مقامهم ؛ وكان المؤلفون فى أول الأمر هم كلوت بك ورفاقه من الفرنسيين أساتذة المدرسة الطبية

وأول ما نقل إلى العربية من العلوم الطبيعية : الطب والطبيعة والنبات والحيوان والكيمياء والصيدلة والتاريخ الطبيعى . وأول المشتغلين بنقلها أو تأليفها ، من الأطباء الذين استقدمهم محمد على باشا لوضع أسس هذه النهضة ، وأكثرهم عملا فى ذلك كلوت بك مؤسس مدرسة الطب ، ثم الدكتور برون بك أحد أساتذتها القدماء . ومن مؤلفات الأول : رسالة فى الطاعون طبعت فى بولاق سنة ١٢٥٠ هـ ، ومبلغ البراح فى علم الجراح ، طبع سنة ١٢٥١ ترجمة العنحورى . والعجالة الطبية فيما لا بد منه لحكماء الجهادية ، طبع سنة ١٢٥٦ ترجمة السكاكينى وغيرها . ومن مؤلفات الثانى : الأزهار البديعة فى علم الطبيعة ، طبعت سنة ١٢٥٤ هـ . والجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية طبعت سنة ١٢٦٠ هـ فى ثلاث مجلدات .

٢ — وأشهر المترجمين من غير الأطباء : يوحنا عنحورى ، وهو من أقدم المترجمين ، وكان ضعيفا فى اللغة الفرنسية ومتمكنا من الإيطالية . فكان ينقل من هذه مباشرة إلى العربية ، فإذا كان المؤلف فرنسياً ترجموه له إلى الإيطالية ثم ينقله هو إلى العربية . وقد ينقلونه له بالإملاء وهو يدونه . ثم يترجمه . ومنهم يوسف فرعون وكان كثيراً ما يشترك مع الدكتور برون فى النقل والضبط . وله بضع عشرة ترجمة فى الطب البيطرى والعقاقير . ترجمها من الفرنسية .

أما المحررون ، فأقدمهم : محمد عمران الهراوى ، وهو من الأزهر . وقد حرر أول كتاب من كتب الطب المترجمة فى هذه النهضة ، وهو كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » تأليف كلوت بك وترجمة يوحنا عنحورى ، طبع فى أبى زعبل سنة ١٢٤٨ ، وحرر أيضاً كتاب العجالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية . تأليف كلوت بك وترجمة أوغسطين سكاكينى . طبع فى أبى زعبل سنة ١٢٤٩ وهو الكتاب الثانى من مطبوعاتها ؛ ومنهم محمد عمر التونسى ، وقد جاور أبوه فى الأزهر وتزوج من مصر وعاد إلى تونس ، فولد محمد فى تونس سنة ١٢٠٤ وجاء إلى مصر وقد بدأ فيها عهد محمد على . لجد فى التحصيل حتى عين واعظاً فى حملة المورة بقيادة إبراهيم باشا . ولما عاد عين مصححاً . فارتاح الدكتور برون إلى أدبه . فقرأ عليه كتاب « كليلة ودمنة » وأخذت مواهبه تظهر فى التصحيح والتحرير . حتى امتاز عن سائر أقرانه بمعرفة المصطلحات العلمية باللغة العربية . وأهم مؤلفاته : « الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية » وهو معجم للمصطلحات العلمية على اختلاف موضوعاتها . قال فى مقدمته ما خلاصته (١) : « ولما كثرت ترجمات الكتب الطبية رأيت أن أؤلف قاموساً جامعاً للمصطلحات . فكان كلوت بك قد أتى بكتاب فرنساوى فى المصطلحات الطبية والعلمية وأوعز إلى مهرة المعلمين بترجمته . وهم إبراهيم النبراوى معلم الجراحة الكبرى ، ومحمد على البقلى معلم الجراحة الصغرى ، ومحمد الشافعى معلم الأمراض الباطنة ، ومحمد الشباسى معلم التشريح الخاص ، وعيسوى النحراوى معلم التشريح العام . والسيد أحمد الرشيدى معلم الأقرباذين والمادة الطبية . ومصطفى السبكى معلم أمراض العين ، وحسنين على معلم النبات . فترجم كل منهم الجزء الذى أعطيه . فأوعز إلى الدكتور برون ناظر المدرسة أن آخذ من الكتب كل لفظ يدل على مرض أو عرض أو نبات أو معدن أو حيوان أو غير ذلك من الإصطلاحات . وأن أستخرج ما فى القواميس من التعاريف وما جاء فى تذكرة داود ، وما فى فقه اللغة وغيره من المعاجم أو كتب اللغة ، ففعلت ذلك وأضفت إليه أسماء العقاقير وأسماء الأطباء المشهورين ورتبته على حروف المعجم . . الخ » . وهو من الذخائر الفنية النفيسة ، ومنه نسخة منقولة بالتصوير الشمسى عن نسخته الوحيدة فى باريس — فى دار الكتب المصرية .

---

(١) جورجى زيدان ٤ : ٢٠٧

وأشهر المصححين : إبراهيم الدسوقي ، وقد عمل في التصحيح من أوائل أيام محمد علي إلى أواخر أيام إسماعيل ، وكان مولده في دسوق سنة ١٢٢٦ هـ ثم انتقل إلى الأزهر وتلقى فيه العلوم حتى صار أهلا للتدريس ، وكان أديبا شاعرا ، وما كاد يشتغل في التدريس حتى احتاج محمد علي إلى المصححين فاختاره لتصحيح الكتب الطبيعية في مدرسة أبي زعبل سنة ١٢٤٨ مع الشيخ محمد عمران الهراوي المتقدم ذكره ، وتقلب في كثير من أعمال التصحيح والتدريس إلى أن كان رئيس مصححي مطبعة بولاق زمن سعيد باشا وكان يساعد في تحرير الوقائع ، وتوفي سنة ١٣٠٠ .

أما المترجمون والمؤلفون من الأطباء والصيادلة ، في العصر الأول من عصور النهضة ؛ فمنهم إبراهيم النبراوي ، وأحمد حسن الرشيدي ، ومحمد علي باشا البقلي ، ومحمد بك الشافعي ، وهم من الإرسالية الأولى ، ومن غير الإرسالية : محمد عبد الفتاح .

٢ – أما في عصر إسماعيل وما بعده فقد أصبحت كتب الطب أكثرها تأليفا ، وقلت الترجمات ، وأكثر المؤلفين والمترجمين قد تخرجوا في أوربة ، ومنهم من تخرج في كلية الطب ، وهي تعلم العلوم باللغة العربية . وأشهرهم : حسين بك عبد الرحمن ، وتلقى الطب في القصر العيني وأحمد بك ندى . وتعلم في القصر العيني ثم سافر إلى باريس لاستكمال دراسة الطب ودرس صناعة الصابون واستخراج الشمع ، وحسن بك عوف الكحال ، وتعلم في مدرسة الطب ، ثم انتقل إلى أوربة فأتقنه فيها ولاسيما الرمد ، وسالم باشا سالم ، وتعلم في القصر العيني أيضا ثم سافر إلى أوربة وجليلة تمرهان ، وهي حبشية الأصل دخلت والدتها مدرسة القوابل ، لأن الوطنيات نفرن من تعلم القبالة ، ولما ماتت خلفتها ابنتها جليلة ، فتعلمت القبالة وارتقت فيها حتى صارت تعلمها في المدرسة المذكورة ، وألفت في هذا الفن كتاب « محكم الدلالة في أعمال القبالة » طبع سنة ١٢٨٦ وغير هؤلاء كثيرون .

ولما عاد المرحوم رفاعة بك الطهطاوي من باريس سنة ١٨٣١ م ، وكان قد حذق الفرنسية ، ودرس صدرا من العلوم الحديثة ، من بينها التاريخ وتقويم البلدان ، عهد محمد علي إليه أولا بالترجمة في مدرسة الطب ، ثم أحال إليه ترجمة كتب الهندسة والفنون العسكرية . وبعد هذا أنشأ محمد علي ، مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ، وولى رفاعة بك إدارتها ، فظل قائما على شأنها إلى

أن خرجت طائفة من المترجمين الأكفاء . حتى إذا كانت سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢) م ألف من هؤلاء قلم للترجمة تولى رفاعة بك رياسته ، ولقد قام هذا القلم كما قام رفاعة نفسه بترجمة كثير من الكتب العلمية فى مختلف أسباب الحياة ، استطاعوا بها أن يعقدوا الصلة بين العربية وبين العلوم الحديثة ، ولقد كان سعيهم فى هذا شاقا مضنيا ، على أنهم قد استطاعوا بسعة العلم ، وقوة الصبر ، والإخلاص لوجه مصر خلق النهضة فيها ، مما يكاد يضاف إلى جملة المستحيل ، وآثارهم فى هذا الباب ما برحت قائمة إلى الآن ، وما زالت تبعث الفخر بهم على كل لسان ، ولقد فترت هذه الحركة العظيمة بعد موت محمد على ، حتى إذا كان عصر إسماعيل ، وانبعث من جديد نهضة العلوم والآداب ، انبثت معها الترجمة ، وجعلت تطرد فى تقدمها طوعا لكثرة المدارس ، وازدياد عدد المتعلمين ، واستيثاق الصلة بين المصريين وعلوم الغرب وآدابه ، كما جعل أداء كتب الافرنج بالعربية يدق وترتفع اللغة فيه ، وبعد أن كانت الترجمة مقصورة ، على جهة التقريب ، على الكتب العلمية ، جعلت تتناول أيضا كتب الآداب فى مختلف صورها ، وما زالت هذه الحركة تطرد وتتسع وتقوى على الزمان ، حتى أدركت اليوم حظا جليلا ، كان له فى بناء النهضة القائمة أثره العميق .

ومن أكثر الناس ترجمة فى هذا العصر : أساتذة المدارس الثانوية والعالية ، وأصحاب الجرائد والمجلات الكبيرة ، ورجال القانون ، والأطباء ، وقد أثرت اللغة العربية بالترجمة ، فاكتسبت سعة فى الأغراض ، وثروة فى المعانى والألفاظ العلمية ، والأساليب الأجنبية ، وطرق البرهنة والاستنباط وترتيب الأفكار ؛ ومن أشهر المترجمين منذ ابتداء النهضة الحديثة حتى اليوم : رفاعه بك رافع الطهطاوى ، المتوفى سنة ١٨٧٣ م ، ثم فتحى زغلول باشا المتوفى سنة ١٩١٤م وبعدهما الدكتور يعقوب صروف ، المتوفى سنة ١٩٢٧ م .

ولم يكن عصر محمد على مقصوراً على الترجمة ، وإنما ألف بعض العلماء من المصريين والأجانب بعض مؤلفات فى علوم مختلفة ، وساعد على نهضة التأليف إنشاء المطابع ، التى أحيت كثيراً من الكتب القديمة ، فنشرت الثقافة العلمية والادبية ؛ على أن هذه الحركة قد فترت بعد وفاة محمد على فيما فتر من أسباب النهضة ، حتى إذا عادت الحياة العلمية والأدبية فى عصر إسماعيل ، أقبل علماء المصريين على التأليف ، وما برحت هذه النهضة فى اطراد واتساع حتى بلغت اليوم قدرا إذا

جل شأنه فإن البلاد لاتزال تتطلع إلى ماهو أجل منه ، طوعا لنهضتها الكريمة ، ومشايعة لآمالها الجسام فى الحياة ؛ وقد أخذ التأليف يصطبغ بالصبغة الغربيةمن حيث التحقيق العلمى والجرى على مذاهب النقد الحديثة ، ولم يقتصرعلى ماترويناه من العلوم عن الغرب ، بل لقد امتد إلى التأليف فى علوم العربية وآدابها .

ومن أشهر المؤلفين ؛ رفاعه بك رافع المتوفى سنة ١٨٧٣ م ، والمعلم بطرس البستانى المتوفى سنة ١٨٨٣ م وعلى مبارك باشا المتوفى سنة ١٨٩٣ م ، والشيخ حسين المرصفى المتوفى سنة ١٨٩٩ م ، والشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ م ، والشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٩٠٦ م ، وجرجى بك زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ م . ثم الشيخ حمزه فتح الله المتوفى سنة ١٩١٨ م ، والشيخ محمد الخضرى بك المتوفى سنة ١٩٢٧ م .

٤ ـ ولقد اقتدى بمصر أهل الشام وصادف ذلك امتداد نفوذ دعاة المسيحية من الامريكان البروتستنت واليسوعيين الكاثوليك وغيرهم ،فهاجر كثير من السوريين إلى مصر وانتظم فى سلك الحكومة والمدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدعاة الذين كان أكثرهم من المستعربين العارفين باللغة العربية ، فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربى ، ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرة سورية ، وغلب عليهم الأدب : من الشعر والكتابة وترجمة الروايات الأدبية ، واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها الشام ومصر ؛ فعاد ذلك على القطرين بالتقدم فى الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها فى مصر كما استمر فى الشام بل ركدت ريحها زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا ، ثم تنسمت فى عصر اسماعيل وما لبثت أن صارت رخاء طيبة فكافح المفكرون المصريون فى سبيل نشر العلم وآزرهم اسماعيل فى ذلك ، فافتتح المدارس والمكاتب وأنشأ الجسور والقصور والمصانع ، ووجد أكثر رجال البعوث العلمية الذين رباهم جده على قيد الحياةفاتخذ منهم المدرسين ورؤساء الإدارة ونهضت حركة الترجمة والتأليف فى عصره نهضة حرية بالتأمل والتقدير .

أثر الأزهر فى الميدان الثقافى والفكرى والدينى :

وللأزهر الشريف أثر كبير فى رقى الثقافة ، وفى تحرير الفكر المصرى ، ومنه استمد محمد على طلاب البعوث وتلاميذ المدارس التى أنشأها ، وعليه عول الحكام فى أعمال الدولة ومناصبها ، وفى جميع الميادين العلمية والثقافية والدينية .

وقد ورث الأزهر الجديد ميراثاً روحياً وثقافيا ضخما جليلا عن الأزهر القديم ؛ ورث عنه الرسالة الدينية التي قام منذ أن أنشىء لحمل أمانتها ؛ والتي أخذها بكلتا يديه ليؤديها إلى العالم شعلة مضيئة هادية ، ومثلا إنسانياً رفيعاً ومذهباً فكرياً قادراً على قيادة الحياة والبشرية جميعا إلى السلام والإخاء والأمن والرفاهية

وورث عنه الرسالة الثقافية التي جاهد من أجلها أجيالا طوالا ، والتي قامت عليها أروقته ومحاريبه وقبابه ومآذنه الشم ، ودأبت على الكفاح في سبيلها حلقاته الطاهرة ؛ التي تجمع فيها شباب المسلمين من شتى الأقطار والشعوب على كلمة الحق والتقوى والمعرفة استجابة لأمر الله ، وتحقيقا لفكرة الإسلام ، وسعيا وراء الحقيقة التي هي أكبر محرر للأمم والجماعات والافراد من أغلال الجهل والجمود والتأخر.

وعاشت حلقات الأزهر الجليلة طويلا خلال الأجيال ، وهي تحمل عن العالم الإسلامي رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية ، وتؤديها ناصعة بيضاء كخيوط الفجر ، مشرقة هادية كضوء الشمس ، هذه الحلقات تخرج فيها زعماء العالم الإسلامي في القديم ، وكانت عن جدارة بمثابة مصنع يصنع الرجال والأبطال ، ممن قادوا الشعوب الاسلامية إلى النهضة والحضارة والعزة ؛ قاد الأزهر في القديم ثورتين كبيرتين تعدان من أسبق الثورات الدستورية العالمية ، قاد إحداهما عام ١٢٠٠ هـ - يناير ١٧٨٦ م أكبر علماء في العصر وهو الشيخ الامام أحمد الدردير وقاد الأخرى ١٢٠٩ هـ - ١٧٩٥ م شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وكسب الشعب المصري من الثورة الأولى مبدأ دستورياً جليلا هو وجوب احترام الحاكم لارادة المحكومين ، وكسب من الثانية مبدأ آخر هو أن الأمة مصدر السلطات ، وكانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان ؛ ووثيقة فريدة في سبيل التحرير سبق بها شعب مصر غيره من الشعوب ، كما اعترف بذلك المؤرخون من العرب والغرب ؛ وقد حمل علماء الأزهر عبء الجهاد لتحرير مصر من الاستعمار الفرنسي منذ دخل جيش نابليون أرض الوطن فاتحا . ولا ننس كذلك أن الأزهر قام بثورة ثالثة في صفر عام ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م لإنهاء النفوذ التركي من مصر ، ولكن دجالا سياسيا بارعا يتدفق في أعصابه الدم التركي استطاع بدهائه أن يحول المعركة إلى مغانم شخصية له ولأسرته التي حكمت مصر نحو قرن ونصف من الزمان ، وكان قائد الثورة المصرية الرابعة كذلك أزهريا صميما هو الزعيم الوطني القائد

أحمد عرابى ، الذى قاد الثورة العرابيـة للقضاء على نفوذ المستعمرين من الأتراك والمستغلين من الإنجليز ، كما كان زعيم الثورة الشعبية الخامسـة أزهريا صميما هو المرحوم سعد زغلول ، الذى كان يعمل للقضاء على الاستعمار الإنجليزى ، وتحرير شعب مصر من أغلاله .

ولقد تطورت البيئة الثقافيـة فى الأزهر فى العصر الحـديث بتأثير الحضارة الفـكرية الغربية ، وبفضل لفيف من علمائه الأعلام الخالدين .

ومن الحق أن الأزهر منذ بدء القرن التاسع عشر كان يتطلع إلى ثقافة الغرب وحضارته فى شىء من الفتور والكراهية ، إيمـانا بقومية المسـلمين السياسية والفـكرية والثقافية ، ولـكنه لم يجحد فـكره السعى إلى النهضة ، أو الإيمان بالتطور فسافر لفيف من أبنائه فى بعثات حكومية إلى باريس ولندن وسواهما من عواصم الغرب ، وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوى ، وتطلع بعض علمائه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفـكرية والثقافية ، للرد على مايثيره بعض الغربيين حول الإسـلام من شبهات ، وكان فى مقدمة هؤلاء : الإمام محمد عبده ، الذى كان أكبر رائد أزهرى للفـكر المصرى فى العصر الحديث . ولقد نهض شيوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبء إصلاح البيئة الثقافية داخل الأزهر ، وبعث روح التجديد والحياة فى حلقات الأزهر العلمية ، لتـكون على صلة بينابيع الفـكر الحديثة المتدفقة .

وفى الحق أن الأزهر المحافظ المتمسك بتقاليده وشعائره ونظمه وحياته الثقافية ، كان أرجح كفه من عوامل التجديد ، وتيارات الجديد .

ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، أو بالتحديد فى مايو ١٩٢٨ تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو تلميذ من تلامذة الإمام محمد عبده ، ولـكنه لم يلبث أن استقال منها فى أكتوبر ١٩٢٩ ، وخلفه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ، ثم عاد الشيخ المراغى إلى المشيخة فى ٢٦ إبريل ١٩٣٥ ، وظل فيها إلى أن توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ . وعلى يدى الشيخ الظواهرى تحول الأزهر إلى جامعة علمية ، لها كليات ثلاث هى الشريعة واللغة وأصول الدين ، وفيها أقسام للدراسات العليا ذات نظام علمى جامعى ، ولـكن أثر ذلك لم يظهر إلا فى عهد

الشيخ المراغى وعلى يديه وبتشجيعه ، فكان يشرف هو ومعاونوه من شيوخ الكليات الأزهرية على نظم هذه الدراسات ، ويشترك فى امتحاناتها ومناقشات رسائلها ويرعى خريجى هذه الأقسام ، ويضعهم فى منازلهم العلمية فى كليات الأزهر وبذلك صار الأزهر يخضع فى حياته الثقافية الجديدة للنظم الجامعية الصحيحة ، هذا إلى ما صنع الشيخ من تقدير للكفايات العلمية ، ورعاية للبحث الثقافى الحر فى داخل الأزهر ، فصنع بذلك نهضة ثقافية جديرة بالتأمل والتقدير .

ومن مشهورى علماء الأزهر فى ذلك العصر :

١ ـ الشيخ عبدالله الشرقاوى المتوفى عام ١٢٢٧ هـ — ١٨١٢ م ، وهو العلامة الفقيه الأصولى النحوى المؤرخ الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم الشهير بالشرقاوى ، ولد ببلدة الطويلة ، وتربى فى القرين من أعمال الشرقية ، وبعد أن حفظ القرآن حضر إلى مصر ، واتصل بالجامع الأزهر ، فأخذ عن طائفة من كبار أشياخه . فلما استوى له ما شاء الله من العلم ، قام بالتدريس فى الأزهر . وسرعان ما طارت شهرته بحسن الإلقاء وعظم التحقيق ، والبراعة فى التأليف فى كثير من علوم الدين واللغة وغيرهما . وكان الشرقاوى رجلا دائب التطلع لمجد الدنيا ، فما برح يعالجه ، ويطلب أسبابه ، جاهدا فى ذلك كل الجهد ، حتى انتهت إليه مشيخة الجامع الأزهر وحتى تهيأ له من الجاه والسلطان وبسطة الغنى ما تتقطع دونه علائق الآمال ، ولما قدم الفرنسيون إلى مصر وأنشأوا ديوانا للاحكام ، ولوا الشرقاوى رياسته(١) .

---

(١) ومن وصف الشيخ الشرقاوى لرجال الحملة الفرنسية قوله : « وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ، يقال لهم نصارى قاثوليقية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ، ويقولون إن الله واحد ، لكن بطريق التعليل ، ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ، ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب =

٢ – ومن شيوخ العلماء كذلك الشيخ محمد الحفنى المهدى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) :

وهو العـــلامة الفقية النحوى الأصلى المنطق الشيخ محمد الحفنى المهدى . من القبط . وقد أسلم وهو صغير على يدى الشيخ الحفنى من أكبر جهابذة العلماء فى عصره . وتولاه الشيخ الحفنى ورباه فى منزله وضمه إلى أولاده ، فحفظ القرآن وطلب العلم فى الأزهر وأخذ عن أئمة شيوخه جاهداً مجداً حتى أدركت مواهبه وبانت براعته ، فجلس للتدريس فيه . وما زال يعظم قدره ، وينبه ذكره . على أنه كان إلى سعة علمه ، ودقة فهمه ، طلق اللسان ، حاضر البديهة ، لطيف المحاضرة ، كيساً واسع الحيلة ، يلق كل امرىء بمـا يرضيه ، ويقع من كل إنسان عند ما يحب ، فيسر له ذلك مجالسة الأمراء ، وملابسة الأعيان من أهل السطوة والثراء . فأحبوه وآثروه وأجروا مختلف الأرزاق عليه . وكان إلى جانب حبه للجاه السلطان ، شديد الشغف بجمع المـال ، فدخل فى الالتزامات ، وأسهم فى التجارات ، واستنبط ألوان الحيل فى استخراج الأموال ، حتى أصبح مثلا سائرا فى سعة الغنى واليسار .

وما زال يسعى ويجد ويبذل فنون الحيل فى طلب مشيخة الأزهر حتى أدركها بعد وفاة الشرقاوى ، لكنه لم يكد يستقر فيها حتى ثار به العلماء ، وانتقضوا عليه ، فأقالوه عنها ، وأديل منه بالشيخ الشنوانى .

ولمـا قدم الفرنسيون مصر وأنشأوا ديوان الأحكام جعلوه فى جملة أعضائه ، وأحاطوه بعنايتهم وإيثارهم ، وتقبلوا شفاعاته فى الناس عندهم ، حتى لقد كان له من سعة الجاه ، ونفاذ الكلمة ، مالم يكن لغيره من سائر أعضاء ذلك الديوان .

٣ – ومن مشهورى العلماء كذلك الشيخ الأمير المتوفى عام ١٢٣٢ هـ — ١٨١٧ م :

= أهـــل زمانهم ، ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يريدون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم ولوا جملة ديوانها جماعة من المشايخ ، وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع » .

وهو العلامة الذى لا يتعلق بغباره فى علمه وتحقيقه ، ولا فى دقة فهمه وشدة تدقيقه ، الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الشهير بالأمير . المنحدر من أصل مغربى ، وقد هبط أهله مصر ، وسكنوا بلدة سنبو من أعمال مديرية أسيوط ، وفيها ولد المترجم ، رحمه الله . وقدقدم به والداه مصر وهو ابن تسع سنين ، وكان قد حفظ القرآن الكريم فلما جوده طلب العلم فى الأزهر وأخذ عن أئمة الأشياخ فيه حتى جود المعقول والمنقول ، وحذق ما تهيأ لعصره من الحساب . والهندسة والفلك . ثم تصدر لإلقاء الدروس بأعين أشياخه وبجيزيه ، فذاع أمره ، واشتهر فضله ، وقصد إليه الطلاب من كل مكان ، وبعثته بعض البواعث إلى القسطنطينية مثوى الخلافة يومئذ . فألقى دروسا حضرها أعيان العلماء هنالك ، فأقروا بفضله وشهدوا بسعة علمه ، واستجازوه فأجازهم ، وقد صنف فى كثير من العلوم ، فكانت تصانيفه موضع الاجلال والثقة لما امتازت به من براعة التحرير ، وقوة التحقيق. حتى لقد كان بعض أشياخه إن غم عليهم الأمر فى إحدى مسائل العلم راجعوا بأعين طلابهم ما كتب فيها الأمير ، وكلها حواش وشروح فى الفقه المالكى وعلم العربية .

وكان رحمه الله رقيق القلب ، مرهف الحس . حلو الحديث ، زاهداً فى متاع الدنيا ، شديد الرغبة عنها ، ولقد عاش ما عاش ، ما تهافت على صحبة الحكام ، ولا داور طغامة الظلام ، ولا جهد فى إحراز الجاه ولا جمع الحطام . وكان ينظم القريض أحيانا . ومن قوله فى التشبيه :

ياحسن لون الشمس عند غروبها	فى روض أنس نزهـة للأنفس
فكأنه وكأنها فى ناظرى	ذهب يجول على بساط سندس

٤ ـ ومن العلماء كذلك الشيخ الشنوانى المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م)

وهو العلامة الثقة الحجة فى المعقول والمنقول ، الورع الناسك ، شيخ الإسلام الشيخ محمد بن على الشنوانى الشافعى . طلب العلم فى الأزهر ، وترواه عن أعيان شيوخه ، حتى بذ لداته وبرع قرناءه ، ثم جلس للتدريس فى جامع الفاكهانى ، الواقع منتصف شارع الغورية ، فأقبل عليه الطلاب ، وكان شديد التواضع واللين والرحمة ، وكان يكنس المسجد بيده ، وقد تولى مشيخة الأزهر الشريف وصيته فى كل مكان

٥ ـ ومنهم : الشيخ حسن بن محمد العطار وقد توفى عام ١٢٥٠ هـ .

وكان أبوه فقيراً عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا فى صغار شئون

الدكان ويعلمه البيع والشراء ، فاختلف إلى الجامع الأزهر خفية عن أبيه ، حتى قرأ القرآن وجد فى التحصيل على كبار المشايخ : كالشيخ الصبان والشيخ الأمير . ولما دخل الفرنسيون مصر فر إلى الصعيد مع جماعة من العلماء . ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية ، وكان يقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة .. ثم ارتحل إلى الشام وكان يقول الشعر دون اهتمام به كما هو عادة كثير من العلماء ، ومن شعره :

إنى لأكره فى الزمان ثلاثة	ما إن لها فى عدها من زائد
قرب البخيل وجاهلا متفاصحا	لا يستحى وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى	هذى الثلاثة جمعت فى واحد

وارتحل إلى بلاد الرم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد إلى مصر وعقد مجلساً لقراءة لتفسير البيضاوى ، كان يحضره أكابر المشايخ . وله تآليف كثيرة منها :

١ — حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين   ٢ — حاشية على الأزهرية فى النحو
٣ — حاشية على مقولات السجاعى   ٤ — حاشية على السمرقندية .

وله رسائل فى الطب ، والتشريح ، والرمـــل ، والزيارجة ؛ وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية ، ووفاته عام ١٨٤٤ .

٦ ـ وقد اشتهر فى هذا العصر وبعده جلة من العلماء الراحلين كانوا فى طليعة الشيوخ البارزين ، على طريقة الأزهر القديمة ، وتلق بعض العلماء عنهم ، نذكر منهم :

الشيخ أحمد رفاعى الفيومى ، الشيخ أحمد الجيزاوى ، الشيخ محمد النجدى ، السيد أحمد حنبلى البسيونى ، الشيخ عبد القادر الرفاعى ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ عبد الكريم سلمان ، الشيخ سليمان العبد ، الشيخ أحمد أبو خطوة ، الأخوين : الشيخ محمد ، الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتى[1] ، الشيخ حسن الطويل ، الشيخ محمد

---

(١) كانا من رجال الثورة العرابية

حسنين البولاق ، الشيخ حسين زين المرصفى ، الشيخ هرون عبد الرازق[1] ، الشيخ محمد البيجرمى ، الشيخ إبراهيم الظواهرى ، الشيخ محمد بخيت المطيعى ، الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، الشيخ محمد راضى الكبير ، الشيخ محمد راضى البحراوى ، الشيخ محمد حسنين العدوى ، الشيخ على البولاق ، الشيخ عبد الغنى محمود ، الشيخ محمد السمالوطى ، الشيخ محمد الحلبي ؛ والشيخ أحمد نصر ، الشيخ محمد شاكر ، الشيخ دسوقى العربى والشيخ عبد الرحمن قراعة ، الشيخ عبد الحكم عطا ، الشيخ سيد على المرصفى .

٧ – ومن علماء الأزهر المشهورين العالم العلامة الشيخ نافع الجوهرى بن سليمان بن حسن بن مصطفى بن أحمد الخفاجى من بنى خفاجة (١٢٥٩ هـ – ١٨٣٤ م : ١٣٣٠ هـ – ١٩١٢ م) ، وهو جد المؤلف لأمه ، ولد فى قرية تلبانة من أعمال الدقهلية ، وحفظ القرآن الكريم ، ونال العالمية من الأزهر عام عام ١٢٨٣ هـ ، حيث تتلمذ فيه على جلة من العلماء والزاهدين ، وأقام ببلدته واعظا زاهدا ، ومفتيا مرشدا ، ومؤلفا واسع الشهرة بين أقرانه ، حتى بلغت مؤلفاته قبل وفاته نحو مائة مؤلف ، أغلبها فى الشريعة والدين والفقه والمواعظ والتصوف وعلوم العربية ، وكان شاعراً مجيداً بليغا مفوها ، وأديبا لا يشق له غبار[2]

وثمة شخصيات بارزة لها فى تاريخ البلاد مكان ملحوظ ، وهؤلاء لم يتموا دراستهم فى الجامع الأزهر ، وأقبلوا على أعمال أخرى فى المحاماة والقضاء وفى العلم والأدب والصحافة ، نذكر من بينهم : سعد زغلول زعيم مصر السياسى ، وإبراهيم الهلباوى المحامى ، ومحمد أبو شادى ، محمد الحسينى المحامى ، وحسن جلال ، ومحمد صالح المستشارين بالمحاكم الوطنية ، وعبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ، والسيد على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، ومحمد النجار صاحب جريدة الأرغول ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وغيرهم وغيرهم .

---

(١) كان مدرسا لمادة الدين بمدرسة الهندسة الملكية قديما .

(٢) راجع ترجمته فى كتابى : « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى — الجزء الثالث والرابع » .

تجدد الثقافة فى هذا العصر

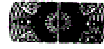
تجددت الثقافة فى هذا العصر تجدداً كبيراً ، فبعد أن كانت ينابيعها قليلة حيث كان الناس يأخذون ثقافتهم من الكتاتيب أو دور الكتب أو المعاهد الدينية ، أخذت ينابيع الثقافة تزداد وتتسع ، فكان فى الصحف والمطابع والمدارس والمعاهد والبعوث ، ومختلف مظاهر الحضارة ؛ كان فى كل ذلك مصدر واسع للثقافة ، وكان منها عون كبير على تجدد الثقافة وتنوعها وتلونها .

وقد كانت النهضة التى بعثها محمد على فى البلاد بإنشاء المدارس للتعليم العام ولتعليم الفنون المختلفة ، وباستقدام طوائف العلماء من بلاد الغرب ، وبإيفاد البعوث من شباب المصريين إليها للتكمل بالعلوم العالية — وما استتبع ذلك من الإقبال على قراءة الكتب وترجمتها وتأليفها ، ومعالجة الأسباب الفنية فى الوجوه المختلفة — كان لكل ذلك أبلغ الأثر فى بث الثقافة الحديثة فى هذه البلاد ، ورفع المستوى الذهنى فيها إلى درجة محمودة . وإن كانت هذه الثقافة لم تشع فى سواد الأمة ؛ بل لقد كانت مقصورة على طبقة صغيرة خاصة ، هى طبقة المتعلمين على النظام الحديث ؛ على أنهم وإن قل عددهم بالإضافة إلى مجموع الأمة ، فلقد كان انتاجهم كثيراً جليلا ، بحيث كانوا فى جملتهم قادرين بالتعليم والتهذيب والتأليف والمحاضرة فى المجالس الخاصة على رفع المستوى الذهنى العام إلى حظ صالح .

ولقد اتسمت الثقافة الحديثة فى صدر هذا العصر بالصبغة العلمية . ذلك لأن هذه النهضة إنما أثارها القائم بالأمر ، بادىء الرأى ، تحقيقاً للأغراض القومية المادية . فبدأ بالتعليم العسكرى ، وثنى بتعليم الطب وما إليه لحاجة الجيش أولا ، ثم جعل يتدرج فى تعليم الفنون المختلفة ليقيم صدور الإصلاح والتعمير فى مختلف النواحى ، وليسد بصنع البلاد ما تحتاج إليه مرافقها ، مستغنية به ، بقدر الإمكان ، عما من شأنها استيراده من البلاد الأجنبية . فكان من الطبعى أن تخرج الثقافة العامة فى الصبغة العلمية . على أن الآداب إذا كانت قد تحركت هى الأخرى فى هذا العهد ، فلقد كان تحركها طوعاً للنهضة العلمية ، وتحقيقا لمطالبها ، ومواتاتها بحاجاتها فى الترجمة والتأليف .

وفى عصر إسماعيل قطعت البلاد شوطا بعيداً فى تحصيل العلوم والفنون

المادية ، لجعلت تلتفت إلى الآداب والثقافية والمعرفة ، ومابرحت تطرد فى هـذا وتستزيد منه ببعث كتب الآداب القديمة ، والإقبال على دراستها ، والتأليف فيها وإرسال الأقلام فى الصحف السيارة بمعالجة البحوث المختلفة فيها . وظل يجل شأنها ، حتى أقيمت للآداب كليتان إحداهما فى الجامعة المصرية ، والأخرى فى الجامعة الأزهرية ، وحتى لقد أصبح العنصر الأدبى فى الثقافة المصرية إن لم يزد على العنصر العلمى فيها ، فهو لا يقل عنه بحال .



تراجم لبعض الأعلام فى ذلك العهد

١ — إبراهيم باشا :

من أصل تركى التحق بخدمة محمد على وتولى إدارة المصانع الحكومية وإدارة المهمات . وقد تعلم اللغة الفرنسية والرياضيات وفن الطوبجية دون أن يستعين بأساتذة أو يلتحق بمدرسة . وهذا العالم الجليل يعدحقا مفخرة لمصر ، وقد أطنب فى مدحه من عرفه من الأوروبيين الذين هبطوا مصر ، وكان يترجم إلى اللغة التركية بعض الكتب والتقارير الخاصة بالصناعات والفنون الحربية .

٢ — الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى :

ولد بطهطا سنة ١٨٠١ وتوفى بالقاهرة سنة ١٨٧٣ ، وقد انتظم فى سلك الطلبة بالجامعة الأزهرية وقضى فيها ثمانى سنوات . وفى سنة ١٨٢٤ عين واعظاً وإماما فى الجيش ، ثم واعظا وإماما للبعثة العلمية الأولى إلى باريس .

وقد تاقت نفسه وهو فى باريس إلى علوم الغرب فعكف على درس اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه واتخذ لمعلما خاصا : وقال جورجى زيدان عنه : « إن الشيخ رفاعة لم يتقن التلفظ باللغة الفرنسية ولكنه تمكن من فهم معانيها فهما جيداً » .

تولى بعد عودته إلى مصر رياسة الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ، وفى سنة ١٨٣٣ انتقل إلى مدرسة المدفعية بطره وعهد إليه ترجمة كتب العلوم الهندسية والفنون الحربية، ولما أنشئت مدرسة الألسن اسندت إليه نظارتها ، ولما أغلقت فى عهد عباس باشا أمر بإرسال مديرها إلى مدرسة الخرطوم الابتدائية . وترجم رفاعة بك فى عهد محمد على باشا مؤلفات كثيرة ، عدا ما صححه من أعمال سائر المترجمين ، وله مباحث فى الدستور كما ترجم بعض نبذ من الدستور الفرنسى الذى درسه وعلق عليه ، وفهم مهمة الصحافة ونشر فى الجريدة الرسمية بعض النصوص الأدبية الشهيرة ، فضلا عن الأخبار المحلية حتى يجنى القارىء ثمرة من مطالعتها ، وله فضل فى نهضة المرأة والدعوة إلى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين .. وتوفى عام ١٨٧٣ — ١٢٩٠ هـ .

رحلة لرفاعة بك :

ولتوضيح أثر الثقافات فى عقلية المصريين فى بدء عصر النهضة نشير إلى رحلة رفاعة بك إلى باريس ، وقد ذكرها الأستاذ أحمد عطية الله فى مقالة له :

لعل أقدم رحلة مدونة لرحالة مصرى فى العهد الحديث هى رحلة رفاعة رافع الطهطاوى التى كتبها منذ قرن وربع القرن ، ووصف فيها سفره إلى فرنسا وإقامته بباريس إبان الثورة الفرنسية الثانية .

قام رفاعة برحلته هذه فى عام ١٨٢٦ ودون أخبارها فى كتاب له دعاه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» ، إذ عين فى تلك السنة إماما للبعثة العلمية الأولى التى أوفدها محمد على إلى باريس . وكانت سنه إذ ذاك خمسا وعشرين سنة ، فقد ولد رفاعة بطهطا فى عام ١٨٠١ ، والتحق بالأزهر فى عام ١٨١٧ ، وتخرج منه فى عام ١٨٢٤م ومن ثم اشتغل بالتدريس به وبالإمامة فى بعض وحدات الجيش ، وفى أثناء هذه المرحلة من حياته أبدى الشيخ ميلا إلى الأدب العربى – ولم تكن دراسته من ضمن المناهج الأزهرية – وميلا إلى دراسة العلوم الطبيعية كالجغرافيا والتاريخ ، وهى دارسات كانت قليلة فى أروقة الأزهر ، ولا شك أن لشيخ الأزهر حينذاك الشيخ حسن العطار أثره فى هذا التوجيه وفى اختياره إماما للبعثة ، وأهم من هذا وصيته لتلميذه حين سفره بتدوين أخبار هذه الرحلة ، وفى ذلك يقول : «فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين وعزمت على التوجه ، أشار على بعض الأقارب والمحبين لاسيما شيخنا العطار – فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار – أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأحوال الغريبة ، وأن أقيده ليكون نافعاً فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع ، خصوصاً وأنه من أول الزمن . إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس كرسى مملكة الفرنسيس ..» .

فنستخلص من هذه الإشارة أنها أول رحلة لمصرى فى العصور الحديثة ، وأن مؤلفها عنى بالمشاهدات الغريبة الطريفة والدراسات الرصينة فهى رحلة ودليل تاريخى وجغرافى وعمرانى لمدينة باريس .

سافر الشيخ فى مركب نيلى من القاهرة فى عصر يوم الجمعة ١٨ مارس عام

١٨٢٦ ، فوصل بعد أربعة أيام إلى الاسكندرية حيث قضى ثلاثة وعشرين يوما فى سراى الباشا محمد على استعدادا للرحلة ،ولم يكن الشيخ قد زار الاسكندرية من قبل ، فلفت نظره بها كثرة عدد الأجانب ومعرفة بعض أولاد البلد اللغة الإيطالية . . وهى ظاهرة لفتت نظره كذلك عند وصوله إلى مرسيليا .

وفى يوم الأربعاء ٥ رمضان من تلك السنة — وهى ليلة استيلاء إبراهيم باشا على حصن ميسو لنجى باليونان ، وتوافق يوم ١٤ إبريل — ركب الشيخ وصحبه سفينة حربية فرنسية تسير بالشراع — إذ أن البواخر لم تكن قد عرفت بعد — وهى ذات ١٨ مدفعا ، وقد أطنب فى وصفها وأسهب . وقد أشار عليه بعض الأزهريين الذين خبروا قبله ركوب البحر إلى اسطنبول أن يتحصن ضد دوار البحر بشرب جرعات من الماء المالح ، ولكنه لم يفعل إذ كان مريضاً بالحمى فبرىء من مرضه بسبب ركوب البحر ، وهكذا كما يقول تصح الأجسام بالعلل . وبعد سبعة أيام وصل إلى جزيرة كريت ومنها إلى صقلية ، فوصلها بعد أسبوع آخر ، وأفرد الشيخ فصلا لوصف بركان اتنا وجغرافية الزلازل والبراكين ، وهى لاشك مادة أضافها إلى يومياته بعد استكمال دراسته فى باريس ، ورسا المركب بضعة أيام عند ميناء مسينا تحت الحجر الصحى ، فكان المسافر إذا أراد أن يشترى شيئا يضع النقود فى إناء به خل منعا للعدوى نظرا لشدة انتشار الأوبئة فى ذلك العهد . وبعد أن مر بمدينة نابولى وصقلية وصل إلى ميناء مرسيليا ، فكانت مدة سفره فى البحر ثلاثة وثلاثين يوماً . وهذه الرحلة تقطعها البواخر الحديثة اليوم فى نحو أربعة أيام .

ومن الواضح أن رفاعة كان يدون يوميات له لاسيما فى الأجزاء الأولى لهذه الرحلة ؛ بدليل ما كان يورده من لطائف النوادر والمشاهدات التى لايلتفت اليها إلا الغريب ، فاذا ماطالت أيامه انطفأ سحرها وبهت لونها فأغفل الرحالة ذكرها، قضى الشيخ نحو شهرين بمدينة مرسيليا ؛ انكب أثناءهما على تعلم مبادىء اللغة الفرنسية ، وفى مرسيليا وقع نظر الشيخ أول ماوقع على مظاهر الحياة الغربية ، فنحس بوقع المفاجأة فى نفسه . استمع اليه وهو يروى كيف فوجىء بالجلوس على مائدة للطعام ، « فلم نشعر فى أول يوم الا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ونحو ماية كرسى للجلوس عليها لأن أهل هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على سجادة مفروشة على الأرض ، فضلا عن الجلوس على الأرض . ومدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية

ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، ثم رصوا حول الطبلية كراسى لكل واحد كرسى ثم جاءوا بالطبيخ .

وهذه الصورة الواضحة التى يرسمها رفاعة للمائدة الغربية وتقاليدها ، تعكس الصورة التى كانت مرتسمة فى مخيلته حين سافر إلى أوربا ، فنستنتج أن الشيخ لم ير من قبل — حتى فى قصر الباشا بالاسكندرية — طاعما يجلس على كرسى أمام طاولة — أو طبلية عالية كما يسميها — أو آكلا يستخدم الشوكة والسكينة لا الملعقة أو يستخدم الأطباق الصينية . ونستدل من هذه الملاحظة أن المصريين كانوا يستخدمون حتى ذلك العهد الأطباق النحاسية ، « ومما يشاهد عند الإفرنج أنهم لا يأكلون أبدا فى صحون النحاس ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية » ، بل لعل الشيخ لم ير الأسرة قبل سفره إلى فرنسا إذ يقول : « والعادة عندهم أنه لابد أن ينام الانسان على شىء مرتفع نحو سرير فأحضروا لنا ذلك » .

ولعل مما أعجب به الشيخ المقاهى الفرنسية التى عرفها أولا فى مرسيليا ثم فى باريس ، وقد وازن بينها وبين المقاهى فى مصر فى ذلك العهد ، بقوله : « والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة ، إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لاتليق إلا بالغنى التام . . وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والمحاشش » ، فمن هذا نستدل على أن مقاهى القاهرة فى ذلك العهد ، لم تكن إلا من النوع الذى يتردد عليه السفلة ويدخنون فيه التمباك أو الحشيش .

ويصف رفاعة أحد مقاهى مرسيليا وصفا شيقا دقيقا ، حتى كأنه يكتب تقريرا واقعيا عن نظام العمل فيه فيقول : « كان أول ماوقع عليه نظرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب . والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وأمامها دواة وريش وقائمة ، وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فاذا طلب الانسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية . وهى تأمر باحضاره له وتكتبه فى دفترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن . وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر ، وبالجملة فهو قدح لافنجان » .

والمعروف فى ذلك التاريخ أن بعض المصريين من الأقباط والمماليك وبعض

السوريين المسيحيين ، نزحوا مع حملة نابليون بعد انسحابها من مصر وسوريا عام ١٧٩٩ ، واستقروا بمدينة مرسيليا ، ولا شك أن الشيخ عنى عناية واضحة بتقصى مصير هؤلاء الهاربين من أوطانهم ، فيعرض لهذا الشأن بقوله : « يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنسوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعاً يلبسون لبس الفرنسيس . وندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس » ، وقد هداه بحثه إلى التعرف على عدد من هؤلاء وأولئك ، منهم امرأة عجوز كان قد خطفها الفرنسيون أثناء انسحابهم وهى باقية على دينها ، كما اكتشف رجلا يدعى محمدا لايعرف من العربية الااليسير ويقول عنه : « فسألته عن بلده بمصر ، فأجاب بأنه من مدينة أسيوط ، وأن أباه يسمى عبد الرحيم وأمه تسمى مسعودة ، وأنه احتفظه الفرنساوية فى حال صغره . ويقول إنه باق على اسلامه ، وانه لايعرف من الأمور الدينية الا الله واحد ومحمد رسوله ، والله كريم » .

فى نحو هذا التاريخ اخترع جورج ستيفنسون الإنجليزى القاطرة ، ولكن السكك الحديدية لم تعرف فى أوربا إلا بعد ذلك بعدة سنين .. لهذا فإن عربات الخيل كانت الوسيلة الوحيدة للسفر الطويل أو القصير . وقد عنى الشيخ بوصف نظام السفر بالعربات . فقسمها إلى خاصة يستقل بها المسافر ، وعامة يستأجر بها محلا كعربات الأوتوبيس فى المدن ، وهذا النوع الأخير هو الذى استخدمه مع رفاقه فى السفر من مرسيليا إلى باريس ، فاستغرقت هذه الرحلة سبعة أيام بلياليها .. إذ أن السفر يكون ليلا ونهارا إلا فى ساعات الأكل حيث ينزل المسافرون بمطاعم خاصة على الطريق أعدت لهذا الغرض ، ولم يتمهل المؤلف طويلا فى وصف هذه الرحلة ، بل أجمل الكلام عنها وختم ذلك بالملاحظة الآتية : « ثم ان الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة باريس ، غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء باريس» .

ولاشك أن رفاعة وهو شاب فى الخامسة والعشرين عندما قام بهذه الرحلة ، قد وجد فى الكلام على المرأة الغربية السافرة — والباريسية بصفة خاصة — مادة طريفة محببة لنفسه جديرة بالتسجيل ، فأفرد لذلك فصولا متعددة من الكتاب . وأول ملاحظة أبداها المؤلف عن المرأة الغربية قوله : « وعادة نساء هذه البلاد

كشف الوجـــه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين » . فهذا التحديد للسفور يدل على مبلغ عناية الشيخ بأمر المرأة التى اكتشف أنها محور المجتمع الباريسى فيما بعد . وهذا ولاريب كان مصدر عجبه دائما ، لهذا نراه يقول عن باريس : « إن باريس جنة النساء وذلك أن النساء بها متعات سواء بمالهن أو بجمالهن . أما الرجال فإنهم عبيد النساء فان الانسان يحرم نفسه ويبره عشيقته » . ثم يصف المرأة التى أصبح لها كل هذا الشأن فى باريس : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما للزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين هؤلاء الرجال فى تلك الحال سواء الأحرار وغيرهن ! خصوصاً يوم الأحد الذى هو عيد النصارى » . . وهو يرى أن إطلاق حرية المرأة مع سفورها لايتفق مع الفضيلة ، لهذا نراه يقول فى الكلام عن أهل باريس عامة : « ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم ، والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الأوائل . وبالجملة فهذه المدينة كباقى مدن فرنسا وبلاد الافرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات » ، ولكنه فى موضع آخر يذكر من محاسن أهل باريس — الشبيهة بطباع العرب — « عدم ميلهم إلى الأحداث والتشبيب فيهم ! فهذا أمر منسى الذكر عندهم . فن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه ، فلا يحسن فى اللغة الفرنساوية قول الرجل : عشقت غلاما ، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ » .

وقضى رفاعة خمسة أعوام فى باريس ، ولم يكن رفاعة طالباً من طلاب البعثة ، بل كان إماما لها ولم يكن الإمام الوحيد . لهذا لم يكن من واجبه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، ولا أن يتوفر على علم من العلوم ، ولكنه على العكس من ذلك انصرف إلى تعلم اللغة الفرنسية منذ أيامه الأولى فى مرسيليا ، وتابع هذه الدراسة على يد بعض المعلمين الخصوصيين ، وكان شغوفا بها حاذقا لها . فبذلك انفتحت أمامه أبواب الدرس والتحصيل ، وأقبـــل على أنواع الكتب الفرنسية قراءة وتلخيصا وترجمة ؛ حتى ذاع اسمه فتوثقت صلاته بعدد غير قليل من رجال الفكر

نذكر منهم مسيو جومار والمستشرق سلفستر دى ساسى . فكان من نتيجة توسعه فى دراسة اللغة الفرنسية مع الحرية التى كانت لموظف لا لطالب من طلاب البعثة فى التنقل بين أنحاء باريس ، أن أصبح رفاعة واسع العلم والتجربة بالحياة الباريسية فى شتى نواحيها ، فلا عجب أن نراه يخص كل ناحية من هذه النواحى بدراسة مستقلة مستفيضة ، لا يعتمد فيها على الملاحظة الشاردة أو الاقتباس بل على الأحكام المبنية على علم غزير وتجربة ناضجة .

وعقد فصلا وصف فيه أهل باريس . ولا يمكن لرحالة أن يحكم على أخلاق شعب إلا إذا تمكن من لغته واتصل به اتصالا كافيا وإلا جاء كلامه لغوا . وقد رسم رفاعة صورة واضحة للشخصية الباريسية مع شىء من النقد الرقيق ، إذ نراه غالبا يحاول التماس الاعتذار ، فمن ذلك قوله : « ومن طباعهم الطيش والتلون وهذا كله فى الأمور الغير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم لا تتغير » ، ويتحدث عن ميل أهل باريس للتجديد فيقول : « ومن طباعهم التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغير لا سيما فى الملبس ، فلم تقف لهم إلى الآن عادة فى التزى .. وليس معنى هذا انهم يغيرون ملابسهم بالكلية بل معناه انهم يتنوعون فيها » ، وفى موضع ثالث يقول : « وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم لا بأموالهم ، إلا انهم لا يمنعون عن اصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته » .

وتتميز رحلة رفاعة بأنها احتوت على سجل تاريخى فريد للثورة الفرنسية الثانية ، مبنية على مشاهدات مصرى ، وغير معتمدة على المراجع الغربية التى تنقل عنها عادة تاريخ اوربا إلى المكتبة العربية .. وهذا شىء له اعتباره ، يصف رفاعة الشرارة الأولى لهذه الثورة التى انتهت فى عام ١٨٣٠ بعزل الملك شارل العاشر وسقوط أسرة البربون : « فى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر فى الصحف ، اخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى بالروايال — يعنى السراية السلطانية — وفى هذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين من شهر يوليو ، وفى يوم السابع والعشرين منه لم تظهر الصحف المناصرة للأحرار — وحصلت حركة عظيمة بعد ظهور الصحف ، فأغلقت الورشات والمعامل والفابريقات والمدارس وظهرت بعض صحف الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته » .

٣ ـــ عبد الله أبو السعود :

تلقى العلم فى مدرسة البدرشين ، ثم انتقل إلى مدرسة الألسن ، وتخرج فيها على يد رفاعة بك رافع ، فهو من تلاميذه الأفذاذ ، وكان يحضر دروس الازهر ، وقد أتقن اللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، ونبغ فى فنون الأدب والشعر .

وقد كتب وعرب كتبا كثيرة فى التاريخ . ولد سنة ١٨٢٠ وتوفى سنة ١٨٧٨ م

٤ ـــ عبد الرحمن الجبرتى :

عاصر المماليك وشاهد حملة بونابرت وعصر محمد على . ودون ما شاهده وسمعه من الأحداث التاريخية الهامة التى مرت بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ويعد كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » من أنفس المصادر التاريخية الحديثة .

ناصب محمد على العداء وأنكر عليه ملكه ، ويذكر بعض المؤرخين أن محمد على انتقم منه وأمر بقتله وهو عائد إلى منزله الواقع على طريق مصر ـ شبرا ، غير أن الذى قتل (ولم يعرف القاتل حتى الآن) هو ابن عبد الرحمن الجبرتى الذى كان يشغل منصب الإمام فى قصر شبرا ، أما الجبرتى فقد توفى سنة ١٨٢٥ ، بعد أن فقد بصره من شدة حزنه على ابنه . وميلاده عام ١٢٤٠ هـ

٥ ـــ أحمد النبراوى بك :

أرسله أهله إلى القاهرة ليبيع بطيخا فخسرت تجارته فخاف الرجوع إلى أهله وانتسب إلى الأزهر ، ثم دخل بعد ذلك مدرسة ابى زعبل . وارسل إلى باريس مع البعثة الأولى . فتزوج من فرنسية وترجم وهو بفرنسا مؤلفات كلوت بك ، وتولى بعد ذلك تعليم الجراحة الكبرى ، واختاره محمد على باشا طبيبا خاصا له ، ورقاه إلى رتبة اميرالاى ، وهو اول طبيب مصرى التحق بخدمة الباشا .

٦ — على باشا مبارك ١٨٢٣ — ١٨٩٣ م

من أفذاذ العلماء المصريين فى تاريخ نهضتنا الحديثة ، وزعيم النهضة التعلمية . فى عصر إسماعيل .

ولد فى برنبال من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية ، وتلق العلوم فى شتى المدارس المصرية ، وسافر إلى باريس مع أعضاء البعثة الخامسة التى بعث بها محمد على ؛ وتولى أعمالا كثيرة فى مصر بعد عودته من البعثة ، وكان وزيراً للمعارف فى عصر إسماعيل .

ومن قبل كان على مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال ، يسيطر على أكبر الإدارات صلة بحياة البلاد ومرافقها ، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التى طالما أحيت مواتاً ، ودرت أخلاف الرزق على الملايين ، وتركت اليباب مزارع وحقولا ، فى أول عهد البلاد بزراعة منظمة ورى منظم . وبينا هو غارق فيما تعده اليوم أبهة المنصب ، ينقل لسبب أو لغير سبب ، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لإصلاح طابية وهو من خريجى المعاهد الحربية ، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر فى تلك الطابية لا يرى أمامه إلا أن يمدها كما يجب أن تعد ؛ تقديرا لأمانة العلم وقياماً بالواجب .. ولى على مبارك باشا فى وقت ما وزارتين ، وجىء به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدى ، ومع أنه ليس أكثر من كبير مهندسين ، فقد جاءت خططه وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات فى حسن الوضع والتنفيذ ؛ ولم يكن على مبارك باشا ذو الوزارتين غير على مبارك صاحب عيشة الخيام فى برارى البلاد يوطد أركان الدفاع عنها ، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب ، يضع من قطع الحديد وصلا لبلاد الريف وقراه ، وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق ، فهو إنما يعيش لبلاده ، وإنما يخدمها حيث يوضع ، ويستثمر كفاءته فى أى مجال . طريقته واحدة ونظرته واحدة ، وهدفه واحد : الواجب

أما عمله فى وزارة المعارف فى كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر

عميق ، كان لا ينى عن زيارة المدارس ، زيارة لا يسبقها إعلان ، ولا شىء من جلبة الرسميات ، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية فى معنى الرقابة ، ومايتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم .

لكنها لم تقف عند ذلك الحد ، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب فى كل فرقة وفى أى مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة ، وطالما كان له جولات فى مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة فى الديوان ، سـواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة .

وكانت داره بالوفدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاماً مما ترى اليوم فى جامعة أو فى ملعب .

وتزين الدار مكتبة جامعة ، نصيب الرجل منها كنصيب أى واحد من قاصديه ، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها ، بل عليه أن يختار لكل مايلائمه ، ويبذل من الكتب والمراجع ، كما يفيض من محفوظه وتجاريبه .

ومن أجل أعماله وأبعدها أثراً فى نشر الثقافة الحـديثة ، إنشاؤه دار الكتب المصرية . وقد تقدم ذكرها . ومدرسة دار العلوم . وقد مضت الإشارة إليها . ولقد كان رحمه الله ، حركة قوية دائبة لا تنى ولا تكل فى معالجة الإصلاح ، وبعث النهضة العلمية والأدبية من جميع أقطارها . وبهذا أذكى الهمم فى طلب العلم والأدب بما جنت منه البلاد ، ومازالت تجنى منه أنضج الثمار .

ومن آثاره كتاب (الخطط التوفيقية) وقد جرى فيه على نهج خطط المقريزى وزاد عليها ما استجد إلى عصره . وقد وصف فيه مصر وبلادها وخططها ومدارسها وجوامعها وغير ذلك ، وإذا عرض لشىء من هذا ذكر من أنشأه وترجم له ، وقد ضمن خططه فوق ذلك مالا يحصى من الفوائد الفنية والأدبيـة . وهذا الكتاب الجليل يقع فى عشرين جزءاً . وله كتاب دعاه (علم الدين) ، وهو دينى عمرانى ، سبكه فى قالب قصصى طريف . وله غير ذلك من المؤلفات والمترجمات . وقد توفى رحمه الله عام ١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م .

٧ — المعلم بطرس البستانى

هو العالم اللغوى الكاتب المؤلف المربى بطرس بن بولس البستانى . وهو مارونى المحتد من أسرة عريقة فى الفضل والحسب . ولد ببلدة الدبية من أعمال لبنان . وتلقى العلوم الدينية واللغوية فى إحدى مدارسه . وكان بعيد الهمة وافر الذكاء شغفا بطلب العلم . فأصاب فى مدى عشر سنين حظا غير يسير من اللغات العربية والسريانية واللاتينية والطليانية . ومن التاريخ وتقويم البلدان والحساب والحقوق والعلوم اللاهوتية . ثم قضى دهراً فى التعليم فى المدرسة التى تعلم فيها . ثم تحول إلى بيروت ودرس الإنجليزية ، واتصل بمبشرى الامريكان ، فعلم بعضهم العربية ، وأخذ عنهم العبرانية واليونانية . ثم اعتنق مذهبهم فانتحل البروتستنتية . وأصبح مبشراً بنحلتهم ، وتولى رياسة إحدى مدارسهم زهاء خمس عشرة سنة ، وأعانهم إعانة قيمة فى ترجمة التوراة إلى العربية . ثم أنشأ فى بيروت مدرسة عالية ما لبثت أن طارت شهرتها فى الآفاق ، وطلبها طلاب العلم من كل مكان . وقد توفى سنة ١٣٠١ هـ — ١٨٨٣ م .

ومن آثاره البليغة فى تاريخ الصحافة السورية أنه أول من أنشأ مجلة علمية فى تلك البلاد . فقد أصدر فى سنة ١٨٧٠ م مجلة (الجنان) ، كما أخرج جريدة سياسية دعاها (الجنة) . وقد عكف فى مؤخرات عمره على المطالعة والكتابة والتأليف ، فعالج وضع (دائرة معارف) وهى أول دائرة معارف بالمعنى الجامع خرجت فى العربية ، أتم منها ستة أجزاء ضخمة ، وعوجل بالموت فى أثناء وضع الجزء السابع ، فواصل العمل فيها ابنه وحفدته حتى أتموا الجزء الحادى عشر .

ووضع قاموسا لغويا دعاه (محيط المحيط) رتبه على أوائل الكلم ، وضمنه ما حوى محيط الفيروز أبادى ، وزاد عليه كثيراً من المصطلحات العلمية ، والفوائد اللغوية المتفرقة فى الكتب المختلفة . ووضع مختصراً لهذا القاموس دعاه (قطر المحيط) . وله كتب أخرى فى النحو والصرف ، والحساب ، ومسك الدفاتر . والمعلم بطرس البستانى ، يعد من غير نزاع ، من أقطاب النهضة العلمية واللغوية فى سوريا فى العصر الحديث . كما أنه من أوائل من طبعوا الشباب على الثقافة الحديثة فى تلك البلاد . على أن فضله وأثره فى العلم واللغة والأدب لم تحتجزه البلاد السورية ، بل تعداها إلى غيرها من الأقطار العربية .

أعلام أخرى

وظهر كذلك فى هذا العصر الكثير من الأعلام من غير من ذكرنا، نذكر منهم :

١ — الشيخ محمد الدسوقى ، المتوفى عام ١٢٣٩ هـ — ١٨١٥ م ، ولد فى دسوق وجاء إلى القاهرة لطلب العلم . ومن مؤلفاته حاشية الدسوقى على مغنى اللبيب فى النحو ، وحاشية على سعد الدين التفتازانى فى البلاغة .

٢ — الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى المتوفى ١٣٠٦ هـ — ١٨٨٨ م ؛ وكان من أكبر علماء مصر فى زمنه ، وقد استدعاه الخديو اسماعيل لتعليم أبنائه ، وجعله الخديو توفيق للمعية . ومن مؤلفاته : سعود المطالع ، جمع فنوناً شتى — وتفح الأكمام فى مثلثات الكلام ، ومؤلفات كثيرة أخرى .

٣ — الشيخ حسين المرصفى ، المتوفى ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م ؛ وكان ذكيا جداً ، تلقى العلم فى الأزهر وتولى التدريس فيه ؛ وكان كفيف البصر . ومن مؤلفاته : الوسيلة الأدبية فى العلوم العربية .

٤ — الشيخ شهاب الدين المصرى ، المتوفى ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م ؛ ولد بمكة ورحل إلى مصر وبرع فى الأدب والشعر ، وساعد الشيخ حسن العطار فى تحرير الوقائع المصرية ، ثم خلفه فى تحريرها . ومن مؤلفاته : سفينة الملك ونفيسة الفلك ، فيها أمثلة من الأغانى ، والأزجال ، والأهازيج ، والموشحات التى يتغنى بها ، وله ديوان شعر مطبوع .

٥ — إبراهيم النبراوى المتوفى ١٢٧٩ هـ — ١٨٦٢ م ؛ بعد أن تعلم فى المراحل الأولى التحق بمدرسة الطب بأبى زعبل ثم اختير فى البعثة الأولى من بعثات محمد على التى صحبها كلوت بك إلى باريس ، وبعد أن عاد تدرج فى المناصب حتى صار رئيساً للأطباء فى مدرسة الطب . ومن مؤلفاته التى ترجمها عن الفرنسية . كتاب الأربطة الجراحية — ونبذة فى الفلسفة الطبيعية — ونبذة فى أصـــول الطبيعة والتشريح العام .

٦ — أحمد حسن الرشيدى المتوفى ١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م ؛ بعد نشأته التعليمية الأولى اتصل بالأزهر ثم اختير فى البعثة الأولى من بعثات محمد على . ومن مؤلفاته رسالة فى التطعيم الجدرى ـ ضياء النيرين فى مداواة العينين ـ طالع

السعادة والاقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والرجال ـ بهجة الرؤساء فى أمراض النساء ـ نزهة الاقبال فى مداواة الأطفال ـ الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية ـ تحفة الأماثل فى علاج تشوهات المفاصل .

٧ — محمد على باشا البقلى المتوفى عام ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ، تعلم فى مرحلته الأولى ثم دخل الأزهر ، ثم التحق بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، واختير فى البعثة الأولى ولما عاد عين أستاذا للجراحة فى مدرسة الطب . ومن مؤلفاته : روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى ـ غرر النجاح فى أعمال الجراح ـ نشر الكلام فى جراحة الأقسام .

٨ — محمد بك الشافعى . من أعضاء البعثة الأولى . ومن مؤلفاته : أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض ـ السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج .

٩ — محمد باشا الدرى المتوفى ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م ، تعلم فى مدرسة الناصرية ثم دخل مدرسة الهندسة ، ثم مال إلى الطب وعين معيدا للجراحة ، ثم سافر إلى باريس زمن سعيد باشا ، ومن مؤلفاته : تذكار الطبيب ـ بلوغ المرام فى جراحة الأقسام ـ الإسعافات الصحية ـ رسالة فى الهيضة الوبائية .

١٠ — على بك رياض الصيدلى المتوفى ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م ، تعلم الصيدلة فى مصر ثم أتمها فى أوروبا ، ومن مؤلفاته : النفحة الرياضية فى الأعمال الاقرباذينية ـ الأزهار الرياضية فى المادة الطبية .

١١ — ومن الأطباء أيضاً : محمد بك بدر ، أحمد بك حمدى الجراح ، حسن باشا محمود ، أحمد بك ندا ، سالم باشا سالم ، ولهم مؤلفات كثيرة .

١٢ — محمد بيومى المتوفى ١٢٦٨ هـ - ١٨٥١ م ، وهو من تلاميذ البعثة الأولى . ومن مؤلفاته : الهندسة الوصفية ـ ثمرة الاكتساب فى علم الحساب ـ كتاب الجبر والمقابلة .

١٣ — مصطفى بهجت باشا المتوفى ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م ، تعلم بمدرسة قصر العينى حين كانت مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية ، ثم التحق بمدرسة الهندسة بالقلعة ، ثم سافر إلى فرنسا فى البعثة الأولى ، وأقام بباريس عشر سنوات وأتقن العلوم الرياضية والهندسية . ولما عاد تقلد مناصب مختلفة ، ثم عين ناظراً لديوان المدارس . ويعد من كبار المهندسين .

١٤ — محمود باشا الفلكي المتوفى ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥ م، نبغ في عصر إسماعيل وأرسلته الحكومة إلى أوربا، ولما عاد تقلب في مناصب كثيرة. وتولى وزارة الأشغال ثم وزارة المعارف، وله رسالة في التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، فأثبت أنها في ٩ من ربيع الأول الموافق ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م - ورسالة في التقاويم الإسرائيلية والإسلامية. ورسائل أخرى.

١٥ — إسماعيل باشا الفلكي المتوفى ١٩٠١، وهو من تلاميذ محمود باشا الفلكي. سافر إلى أوربا في البعثة التي أرسلها عباس الأول لدراسة الفلك، وهو من النابغين في الفلك والرياضيات. ومن مؤلفاته: الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة - التحفة المرضية في المقاييس والموازين المترية - تقاويم فلكية مختلفة.

١٦ — مختار باشا المصري المتوفى ١٣١٥ هـ - ١٨٩٧ م، تعلم في المدارس الحربية ثم انتظم في الجيش ورقي حتى وصل إلى رتبة لواء، وله مؤلفات كثيرة في الرياضة والفلك.

١٧ — ومن علماء الرياضة أيضاً: إبراهيم رمضان وأحمد فايد باشا، وحسن بك نور الدين وإسماعيل باشا محمد وغيرهم وغيرهم.. وقد نبغ كثير من العلماء في الطبيعيات والزراعة والحقوق والعلوم السياسية والحربية والإدارة العسكرية والملاحة والعلوم البحرية والقانون وغير ذلك.. وقد نشطت ترجمة العلوم الحديثة في سوريا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويرجع هذا النشاط إلى المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت، حين شرع أساتذتها في التعليم باللغة العربية. ومن أشهرهم: الدكتور فانديك والدكتور يوحنا ورتبات والدكتور جورج بوسط وغيرهم.

١٨ — السيد علي الدرويش المتوفى ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م، كانت له منزلة بين الأمراء والوجهاء وكان شاعر الخديوي عباس الأول.

١٩ — محمد عثمان جلال بك المتوفى ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م، تلقى العلم في مدرسة قصر العيني حين كانت مدرسة إعدادية، ثم صار تلميذاً لرفاعة بك في في مدرسة الألسن، وكان يميل إلى الفن الروائي، وقد شغل مناصب كثيرة في الحكومة، وكان آخرها منصب القضاء في المحاكم المختلطة. ومن مؤلفاته: كتاب العيون اليواقظ، وهو تعريب شعري لخرافات لافونتين. وعرب رواية ترتوف

لموليير وسماها (الشيخ متلوف) بعد أن تصرف فيها وأكسبها مسحة مصرية .

٢٠ — الشيخ ناصيف اليازجي المتوفى ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، وهو من أركان النهضة العلمية في سوريا ، وله اضطلاع راسخ باللغة والأدب والشعر . ومن مؤلفاته مجمع البحرين وهو مقامات على نسق مقامات الحريري ، وله مؤلفات مدرسية كثيرة في النحو والصرف والبيان .

٢١ — أحمد فارس الشدياق المتوفى ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م ، ولد في لبنان ، ثم انتقل إلى مصر وحرر في الوقائع المصرية مدة ، ثم رحل إلى أوربا وغيرها وتعرف إلى باي تونس فأكرمه ، ثم أسلم وسمي أحمد . وكان متضلعا في علوم اللغة ومن مؤلفاته : الساق على الساق ، وهو كتاب لغوي فكاهي — والجاسوس على القاموس .

٢٢ — الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م ، وهو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ، ولد في بيروت ونشأ فيها ، وكان ممن يعتد بهم في اللغة في عصره وقد انتقل إلى مصر ، وأنشأ مجلة البيان ثم مجلة الضياء وبها بحوث جليلة في اللغة والأدب . ومن مؤلفاته : كتاب نجعة الرائد في المترادف والمتوارد .

٢٣ — سعيد الشرتوني المتوفى ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م ، ولد في لبنان ، وتعلم اللغة العربية وعلمها في مدرسة اليسوعيين في بيروت ، وأشهر مؤلفاته كتاب أقرب الموارد في اللغة .

من أعلام المفكرين :

جمال الدين الأفغانى

١٢٥٤ هـ — ١٨٢٩ م : ١٣١٤ هـ — ٩ مارس ١٨٩٧ م

كان بالجلة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ، والسيد جمال الدين الأفغانى — على اختلاف الناس فيه ، وعلى كثرة خصومه وأعدائه فى الحياة وبعد الممات — آية من آيات المجد ، بل لعل الشرق منذ قرون لم يلد مثل السيد جمال الدين الأفغانى .

يقول ارنست رينان فى مقال كتبه فى جريدة الديبا الفرنسية فى مايو سنة ١٨٨٣ : « لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين فوقع فى نفسى منه مالم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فى تأثيراً قويا ، وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث اليه ، أنى أرى وجها لوجه أحد معارفى من الأقدمين وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو بعض أولئك العبقريين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من إسارها » .

وقد اختلف الناس فى أمر السيد جمال الدين حتى ليقول الشيخ محمد عبده فيما كتبه من سيرته : « يحملنا على ذكر شىء من سيرة هذا الرجل الفاضل مارأيناه من تخالف الناس فى أمره ، وتباعد ما بينهم فى معرفة حاله وتباين صوره فى مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه ، أوقوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله » .

ويختلف الناس فى السيد جمال الدين هل هو أفغانى النشأة أو هو إيرانى ، وهل هو شريف ينتسب إلى الحسين بن على أم هو ليس بشريف ولا حسينى ، ويزعم بعض الناس أنه من الشيعة . ويقول آخرون : بل هو سنى حنفى المذهب ، ويرى رينان وغير رينان أنه كان إماما من عظماء الإسلام ، ويمثله بعض المترجمين له رجلا سياسياً ، ويجعله آخرون مصلحا دينيا ، وصفه سليم بك العنحورى فقال : « أسمر اللون فى صفرة مفلفل الشعر أسوده نحيف البنية أهيف القامة جذاب الملامح خفيف العارضين حاد البصر ، يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه ، يلبس

السواد ، ويتزيى بزى العلماء ، طلق الكلام ذرب اللسان فصيح اللهجة بليغ العبارة مليح النكتة سمح الكف طلق المحيا وقور السمت ، يتجنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات ، يكره الحلو ويحب المر ، وقلما خلت جيوبه من خشب « الكينا » والراوند ، يتنقل بهما تفكها يأكل الوجبة « مرة كل يوم » ولا يأكل إلا منفرداً يكثر من شرب الشاى والتبغ » .

وبعد أن نقل السيد رشيد رضا رحمة الله عليه ترجمة المنحورى للسيد جمال الدين فى شرح (سحر هاروت) علق عليها بقوله : « وقد اطلع الأستاذ الإمام على هذا الشرح أيام كان مقيما فى بيروت واجتمع بالكاتب فأقنعه بأنه مخطىء فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر إلى تخطئة نفسه فى الجرائد ... وأما ما ذكره المنحورى عن عادته فى أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب ، فقد كان يأكل الوجبة ولكنه لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثر من شرب الشاى ، ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات فإن لم يكن ما قيل من شربه القليل من الكونياك فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة كأن رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداوياً فظنه الناظر عادة » .

وهذا الفرض الأخير الذى يفرضه السيد رشيد رضا رحمة الله عليه يتفق مع حال فيلسوف يقول رينان حين رآه : إنه خيل اليه أنه يرى ابن سينا أو ابن رشد .

ومن العجيب أن الناس اختلفوا حتى فى صفات السيد جمال الدين الجسمية ، فبينما يقول سليم المنحورى ما أسلفنا ، يقول أديب اسحق : « عرفت صاحب الترجمة بمصر ، وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة والاسكندرية ، فكلامى فى ترجمة حاله عن علم واختبار . والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ، وهو عزب عفيف النفس ، قانت كثير القيام ، لا ينام إلا الغلس إلى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى المعارضة ميال إلى المعارضة طويل الحجة ، واسع المحفوظ نبيه ، يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السراء ، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج » .

وربما كان أديب اسحق أولى من صاحبه بمعرفة السيد الأفغانى وبالقدرة على تصويره ؛ فإن المنحورى نفسه يصور فى ترجمته للسيد جمال الدين أن صلة أديب اسحق به صلة قوية فيقول : « وبعد أن ذهب المنشىء الكاتب أديب اسحق إلى الاسكندرية قصـــد تمثيل الروايات تحت رياسة الفاضل سليم نقاش سنحت عوارض قضت بإلغاء التمثيل ، فأصبح أديب خالى الوفاض ، بادى الانفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخورى إلى القاهرة مصحوبا بكتاب وصاة إلى جمال الدين ، فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من أمارات الذكاء ومخايل النجابة ، ولزمه ثمة ملازمة اللام للألف وأقبل عليه إقبال الهائم العانى الكلف . . »

أما الشيخ محمد عبده فيصف أستاذه بقوله : « ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل فى النظر هش بش عند اللقاء » . ويكاد يتفق المؤرخون على أن السيد جمال الدين الأفغانى كان حاد الطبع عجولا . يقول المنحورى : « ولو لم يكن طموحا إلى المعالى بإفراط وإعجال وعاجزا عن كتمان مبدئه وغايته لرحب به التاريخ . وأفرد له من أسفاره صفحات تتزين زينها برقم أعمال مجيدة تكون قدوة للأمين وذكرى » .

ويقول أديب اسحق : « ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج » .

والشيخ محمد عبده يصف أستاذه بحدة المزاج أيضاً فى أسلوب يكاد لما فيه من فرط التلطف مع الحرص على بيان الواقع ينتهى إلى شبه تناقض يقول :

« أما أخلاقه ؛ فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد يمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى الذى قدمناه ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان . وهو قليل الحرص على الدنيا بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت ؛ فإنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

بدأ السيد حياته حياة السفر والجهاد واقتحام الغمرات في الثامنة عشرة من سنه . وظل مجاهداً رحالا مقتحما للغمرات حتى استدرجه السلطان عبد الحميد إلى الأسر الذي مات فيه . وعاش الرجل جندياً في ميدان الكفاح ، لا هم لنفسه إلا أن يدمر كل صرح للاستبداد والظلم في الشرق الإسلامي العربي ، وأن يشعر أهل ذلك الشرق بعزتهم وكرامتهم وحقهم في الحرية ، يعمل لذلك سراً ويعمل لذلك جهراً ، يسهر لذلك ليله فلا ينام الليل إلا غرارا ، ويتبلغ من القوت بما يقيم صلبه ، حتى لقد نسي لذات الحياة ، وألف عيشة لا يستطيعها إلا رجل عبقري فيه كل ما في العبقرية من شذوذ عجيب . ومن أجل هذا تكاملت في السيد جمال الدين كل نواحي القوة وتضاءلت كل نواحي الضعف ، حتى ما كان منها ضروريا للتعادل بين قوى الإنسان كيلا يطغى بعضها على بعض .

وهو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما . ولد بقرية أسعد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان ، وعشيرته فيها من أكبر العشائر وأجلها محلا . وقد تحول به أبوه إلى كابل ، وهو لما يزل في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية ، ودرس التاريخ ، وعلوم الرياضة ، والهيئة وغيرها ؛ وواتته شدة ذكائه بالتبريز في كل ذلك في مدى قصير . ثم شخص إلى الهند فأقام هنالك سنة وبضعة أشهر ، راجع فيها العلوم الرياضية على الأسلوب الحديث . وما زال يضطرب بين أقاليم الأرض المختلفة يعالج العظائم ، ويعاني جلى الأحداث ، حتى وفد على مصر سنة ١٢٨٨هـ — ١٨٧١ م . ولم يكن وفوده بنية الإقامة . غير أن المرحوم رياض (باشا) رئيس الوزارة يومئذ ، حبب إليه المقام استفادة بفضله وحكيم رأيه . وأجرت عليه الحكومة رزقا شهريا يقيم به شأنه . وتصدر في داره لقراءة كتب العلم في التوحيد ، والفلسفة ، وأصول الفقه وغيرها ؛ فاستوى إلى دروسه الكثير من نجباء الطلاب .

امتاز جمال الدين بحدة الذكاء ، ووثاقة العقل ، وشدة الطبع ، وقوة العزم ، كما أوفى على الغاية من اللسن وصولة الحجة . وكان لا يفتأ ينفخ في طلابه وجلاسه روح الحرية السياسية ، ويدعو إلى العمل على جمع كلمة المسلمين في أقطار العالم . وقد تخرج عليه طائفة ممن علا صيتهم في العلم والفضل والسياسة وقوة البيان .

على أنه لم يصب حظا عظيما من العربية ، ولم يتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير ، إلا أنه أجدى على العربية فى نهضتها الأخيرة باستحثاث طلابه على الالتفات إلى المعانى ، وترك العناية بزخرف اللفظ ، والتكاثر بالعبارات الجوف التى لا تحمل معنى ولا تدفع إلى غرض ، وصرفهم عن التمهيد بين يدى كل موضوع بتلك المقدمات الطويلة التى لا تدعو إليها حاجة الكلام . ومع أنه لم يكن سريا من العربية وآدابها إلا أنه بشدة نفسه وقوة تفكيره ، كان ينتزع البلاغة انتزاعا ؛ فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام ، وإن كانت تأبى عليه أعجميته إلا أن يغلط أحيانا فى بسائط الاملاء . ولقد أخرج من القطر المصرى فى سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م ؛ فرحل إلى الهند ثم تحول إلى انجلترا فلم يلبث فيها طويلا . ثم شخص إلى باريس ، وهناك وافاه إليها تلميذه المرحوم الشيخ محمد عبده ، وأخرجا جريدة (العروة الوثقى) ، داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ، ورفع النير الأجنبي عنهم .

وانتهت به خاتمة المطاف إلى الآستانة ، فأقام فيها مكرم المنزلة أثيرا عند السلطان ، حتى قبض إلى رحمة الله .

و من نماذج كتابته ما كتبه إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه وقد بلغه أن رجلا ذمه أمام الخديو على مسمع من فكرى باشا فسكت ولم يدافع عنه[1] :

مولاى ! إن نسبتك إلى هوادة فى الحق وأنت ـ تقدست جبلتك[2] ـ فطرت عليه ، وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعت يقينى بالشك ، وإن توهمت فيك حيدانا[3] عن الرشد ، وجورا عن القصد ، وأنا موقن أنك لازلت على السداد غير مفرط ولا مفرط[4] فقد استبدلت علمى بالجهل ـ ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع[5] به غير وان ولا ضجر ، ولو ألب[6] الباطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة ،

---

(١) قد تبين للسيد بعد ذلك أن فكرى باشا دافع عنه فى ذلك المقام أبلغ دفاع

(٢) أى طهر أصلك وطبعك .

(٣) الحيدان : الميل .

(٤) الإفراط فى الشىء : المغالاة فى الأخذ فيه . والتفريط : إهماله كل الإهمال

(٥) تصدع به : تجهر به . (٦) ألب : جمع

لكذبت نفسى وكذبنى من يسمع مقالتى ، لأن العالم والجاهل والفطن والغبى كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ، ونقاوة سريرتك ، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ، لا تفارق المكارم ولو اضطررت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شرا أبدا ، ولا تصدر عنك نقيصة قصدا ، ولا تهن فى قضاء حق ، ولا تنى عن شهادة صدق ـ ومع هذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتى وسرى ، أراك ماذدت عن حق كان واجبا عليك حمايته ، ولا صنت عهدا كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شرا ، ولا أسررت لأحد فى خفيات ضميرى ضرا . وتركتنى وأنياب النذل اللئيم (فلان) ، حتى نهشنى نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقانى وإغراء من أعدائى أحزاب (فلان) ! ما هكذا الظن بك ، ولا المعروف من رشدك وسدادك ، ولا يطاوعنى لسانى ـ وإن كان قلبى مذعنا بعظم منزلتك فى الفضائل ، مقرا بشرف مقامك فى الكمالات ـ أن أقول : عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة ، وإدحاضا للباطل ، وإخزاء للشر وأهله ، وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل ، ثم إنى يا مولاى أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلما عليكم ، وداعياً لكم ـ والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل البار أمين بك .

ومن نثره كذلك ما كتبه إلى محمد المويلحى صاحب « عيسى بن هشام »

تقلبك فى شؤون الكمال ، يشرح الصدور الحرجة من حسرتها . وخوضك فى فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها ، وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز . ذلك يوم مشذ التحدى ، ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى ، وهذا توفيق من الله تعالى . فاشدد أزرها ، وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها . حتى تكون كلمة الحق هى العليا . ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم المنون إلى مهواة شقائها . وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ويصلحون أمراً . وكن عونا للحق ولو على نفسك ، ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عجبك لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان . وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام .

لغة التخاطب بين العامية والفصحى

كانت العامية فى أوائل هذه العصور سائدة وغاية فى الانحطاط ؛ ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل فى عباراتهم كثير من الفصيح ، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين وبعض النساء . ومما ساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات ، وترق الزجل والمواليا والواو ، وبلغ الزجل فى عصر إسماعيل غايته ، ومن أشهر رجاله المرحوم محمد عثمان جلال بك ، والمرحوم السيد عبد الله النديم ، والمرحوم الشيخ محمد النجار ، والمرحوم الشيخ أحمد القوصى وغيرهم ، إلا أنه أخذ يضمحل بغلبة الشعر الفصيح عليه وترفع كبار الرجال عن استماعه .

وكان ذيوع قصة عنترة وأبى زيد الهلالى وألف ليلة وليلة سبباً من أسباب رقى لغة التخاطب .

والفضل كل الفضل فى احتفاظ الألسنة بكثير من صفائها وسلامتها ونقائها يرجع إلى القرآن الكريم وإلى الثقافة الدينية الإسلامية العربية .

ومن أسباب رقى لغة التخاطب كذلك نشأة فن التمثيل فى عصر إسماعيل ، وإنشاؤه دار الأوبرا الخديوية ، التى كانت رواية عايدة أول رواية مثلت فيها ، وقد أجدى التمثيل على الأدب ، بما أذاع من لغة فصيحة وآداب رفيعة .

الأدب العربى فى هـذه الفترة

كان الأدب العربى فى هذه الفترة أشبه بالمريض الذى يقبل على أسباب الشفاء ، وبالظمآن لايخدعه السراب عن طلب الماء ، فلقد ركدت اللغة العربية وأدبها بفتور أبنائها عن السعى إلى الجد فى شؤون الحياة ، وانقطاعهم عن طلب علوم الدنيا ، والتشبه بجدودهم فى العمل والدأب على كل مايعز شأنهم ، ويرفع قدرهم ، ويعلى كلمتهم ، ويبسط فى الأرض سلطانهم . حتى لم يبق مايدور على الأقلام من آداب العربية إلا التافه من الصيغ والتعبيرات ، ترص فى الرسائل رصا ، وتحشر فى المكاتبات حشراً ، لايطلب بها معنى جليل ، ولا يراد منها غرض سام ، بل إن كل المراد من تحبيرها هو تزيين اللفظ وتنميقه ، وتحسينه بأنواع النكت البديعة لا أكثر ولا أقل . وأما روائع آداب العربية مما قال المتقدمون وكتبوا ، سواء فى نثرهم وفى شعرهم ، فذلك ما لم يعلم به إلا القليل ، ومالم يحاول احتذاءه والنهج على سنته أحد . وقد اتجهت الثقافة فى أول هذه الفترة إلى بعث العلوم وإحيائها ، لأنها هى الوسيلة إلى تحصيل القوة المادية التى تدعو إليها ضرورات الحياة . لذلك أقبل المترجمون والمؤلفون فى عهد محمد على على معاجم اللغة وما دون المتقدمون فيها من الكتب والرسائل ، ليستخرجوا من بطونها المصطلحات العلمية والصيغ الفنية . فيستعينوا بها على التعبير عن مسائل العلوم والفنون . أما الآداب فلقد قضت تلك الضرورة بألا يكون لها من هذه النهضة إلا حظ ضئيل .

وقد كان إنشاء المطبعة الأميرية ، وإصدار « الوقائع المصرية » ، التى خصت بعض صفحاتها بنشر المقالات الأدبية ونحوها ، مما أثر فى الأدب ، إلا أن ذلك لم يكد يغنى فى نشر الآداب والارتفاع بشأنها أى غناء ! .

فلقد انحدر الأدب فى هذا المضطرب ، بالضرورة ، من أدب العصر الذى تقدمه وقد مرت بك صفته . ولم يدخل عليه فى هـذه الفترة مايرفع من شأنه ، أو يعدل به عن وجهه ، أو يفسح فى أغراضه . وعلى الجملة لم يدخل عليه جديد من أى قطر من أقطاره . بل لقد ظل الأدباء يتأثرون من قبلهم فى فنون الآداب ، منظومها ومنثورها ، ويقصونهم فى جملة أغراضهم ، ويترسمون خطاهم فى منازع بلاغاتهم . ما اجتمعوا للتوسع فى أغراض الكلام ، ولا تحركوا للابتكار فى فنون البيان .

وقد ضعف شأن الأدب في الجملة في هذا العصر عنه في العصر الذي تقدمه، اطراداً مع سنة الضعف بطول لزوم القديم، وعدم الانبعاث لطلب نهضة جديدة.

وكانت مصر والأقطار الشرقية العربية منقطعة الصلة بالآداب العربية القديمة وبالنهضات والثقافة الحديثة التي قطعت مراحل في نموها وتقدمها. ولم يكن القدر السائد من الثقافة في الكتاتيب والمعاهد الدينية وغيرها بالقدر الذي يطفيء غلة، أو يغذي ميولا علمية، أو يحقق غاية من ينشدون الإصلاح والتجديد، فهو قدر ضئيل هابط كما علمت.

وأما التحصيل اللغوي والإلمام بأساليب التعبير، فقد كان راكدا، وكانت منابعه محجبة مطموسة بعيدة المنال، لا يعرف القوم من أمرها اسما ولا رسما، ولم يكن لكتب الأدب العربي القديم خطر من الذيوع فكان الجهل بها مطبقا، وكان أثر ذلك في الأدب عميقا.

ولا شك أن العوامل الثقافية السالفة الذكر كانت تعمل عملها في عقل الأمة وتفكيرها ومشاعرها، وتدعو إلى يقظة الأدب ونهوض الأدباء للعمل من أجل إحياء الآداب العربية في مصر الإسلامية:

ثم جاء عهد إسماعيل فعظم النشاط العلمي، وازداد اتصال المتعلمين بأوربا وعلومها وأنواع ثقافتها، وأيقن القوم أن النهضة الحديثة لا غنى لها عن مجاراتها ومجاراة أوربا في ثقافتها ومظاهر حياتها، فجدوا في المحاكاة شكلا وموضوعا، وكان حظ الأدب أحسن من ذي قبل، وقد جاءت نهضة الأدب على أساس من الأدب العربي القديم ودراسته ومحاكاة أساليبه وأغراضه ومعانيه، والتشبع بأخيلته وما فيه من ألوان البيان. وأخذ المصريون يقبلون من الحياة الأوربية المقدار الذي وسعته ميول الشعب وتقاليد البلاد. لهذا أصبح الأدب يتجه إلى الأدب القديم وعوامل الحضارة يتأثر بكل ذلك، ويستمد منه أسباب الحياة ومقومات النهضة.

ولكن الأدب إنما ينبع من الحياة، ولا يقوم إلا على مسايرتها، فاستمراره في ترسم معالم الماضي والتزام اتجاه السابقين في تفكيرهم وخيالهم واستعاراتهم وأساليبهم دون تصرف، جعله بمعزل عن الحياة الحديثة، وأبعده عن أن يكون أداة لها، وصرف عنه طائفة هي أولى بأن يكتسبها الأدب، وهي طائفة الناشئين ومن ساروا في تعليمهم وفي بعض نواحي حياتهم سيراً حديثا.

وهذه رسالة بعث بها محمد على إلى طلبة البعثة الأولى فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ م ، وهى دليل على حالة الأدب فى أول هذه الفترة :

قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة ، ما فهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس ، التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية ، وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة ..

حالة النثر فى هـذا العهد

نماذج النثر

١ — من كتاب للشيخ حسن العطار :

أما بعد ، فإن أحسن وشى [١] رقته [٢] الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكمام [٣] ، عاطر سلام يفوح بعبير [٤] المحبة نفحه [٥] ، ويشرق فى سماء الطروس [٦] صبحه :

سلام كزهر الروض أو نفحة الصبا   أو الراح تجلى فى يد الرشإ الألمى [٧]

سلام عاطر الأردان [٨] ، تحمله الصبا سارية على الرند [٩] والبان [١٠] ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلى بها معصمه وجيده :

٢ — ومن كلام فى حب الوطن لرفاعة بك رافع الطهطاوى

إن حب الوطن من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان ومولد الإنسان على الدوام محبوب ، ومنشؤه مألوف له ومرغوب . ولأرضك حرمة وطنها ، كما لوالدتك حق لبنها . والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ، [١١]

---

(١) الوشى : المحسن بالألوان . يريد به هنا : زخرفة الكلام .

(٢) رقته : خططته .

(٣) الأكمام : جمع كم بكسر الكاف وتشديد الميم ، وهو غلاف الزهرة التى تنشق منه .

(٤) العبير أخلاط من الطيب .

(٥) نفحه : رائحته .

(٦) الطروس : الأوراق واحدها طرس بكسر الطاء .

(٧) الراح : الخمر . تجلى : بالبناء للمجهول تكشف وتدار مشرقة . الرشأ : ولد الظبية . والألمى : المسود الشفة ، وهذه الصفة من مظاهر الحسن عند العرب .

(٨) الأردان : جمع ردن بضم الراء ، وهو طرف الكم .

(٩) الرند : نبات طيب الرائحة

(١٠) البان : شجر معتدل القوام يستخرج من حبه دهن طيب

(١١) القوابل : جمع قابلة . وهى التى تتلق الولد عند ولادته .

ولا ينسى دارا فيها قبائله . فإنى وإن ألبستنى المحروسة نعما ، ورفعت لى بين أمثالى علما [١] . وكانت أم الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ، وأحبها حبا جما ، لأنها ولية النعما ، وقضيت فيها الأربعين مجاوراً كرام السجايا والبحور الطواميا ، فلا زلت أتشوق إلى وطنى الخصوصى وأتشوف [٢] ، وأتطلع إلى أخباره السارة وأتعرف . ولا أساوى بطهطا الخصبة سواها ، فى القيام بالحقوق وإكرام مثواها .

منازل لست أهوى غـــيرها سقيت   حيا يعم ، وخصت بالتحيات [٣]

وأمنحها زمنا بعد زمن الزيارة ، وأجدد فيها من هبات الحكومة العمارة . وأبذل فى محبتها النفيس لتحصيل الأراضى للزرع والغرس ، وأفتخر بها كما افتخر عصام بالنفس [٤] ، وأنشد قول الحافظ كمال الدين الأدفوى :

أحن إلى أرض الصعيد وأهـله   ويزداد وجدى حين تبدو قبابها
وتذكرها فى ظلمة الليل مهجتى   فتجرى دموعا إذ يزيد التهابها

٣ — ولعبد الله باشا فكرى :

سلام يعبر عن الوداد طيب عبيره [٥] ، ويخبر عن إخلاص الفؤاد لطف تعبيره ، وثناء على محاسن تلك الشمائل ، أرق من نسمات الشمائل [٦] ، وتحية بهية تباهى الخمائل [٧] بنفحات أورادها [٨] ، وأدعية مرضية جعلتها الألسنة خير أورادها [٩] ، وسؤال عن المزاج الزاهر ، وصحة الخاطر الباهر ، لازلتم محل

---

(١) العلم بفتحتين : الراية ، يريد أنها أعظمت شأنه وأكرمت محله .
(٢) تشوف إلى الشىء : تطلع إليه فى شغف .
(٣) الحيا : المطر . يدعو لها بالخصب والرخاء .
(٤) يشير إلى قول الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما   وعلمته الكر والإقداما

(٥) الخلال والسجايا   (٦) جمع شمال : اسم ريح .
(٧) الخمائل : جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف .
(٨) الأوراد : الورود   (٩) الأوراد : مايتلوه الناسك من الأذكار

نغمة يتصل على مدى الأيام بقاؤها ، وتزيد على مر الشهور والأعوام بهاؤها ، ولا برحت ثغور الإقبال إليكم بواسم ، ورياح الآمال لديكم نواسم [١] . وبعد فإن بي من الأشواق ، ما تضعف عن حمله إلى حماكم الأوراق ، ومن التأسف على ماحرمته من لقياكم ، والتلهف إلى مطالعة أنوار محياكم ، مايقصر عن وصفه لسان اليراعة [٢] ، ويقصر دون وصفه بيان البراعة ، ويضيق عنه نطاق العبارة . ولا ينفسح له ميدان الإشارة .

٤ — ومن كتاب له أيضاً إلى بعض أصحابه :

كتبت والذهن فاتر [٣] من وهن الدفاتر ، والتبييض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والترجمة وكثرتها ، والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها والنفس وذلتها ، وراتبي لايكفي أجرة البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت ، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة ، واعتذر اليوم بالأصيل على العادة ، على أنه لو حصلت زيادة فلزيد وعمرو ، إلى آخر الزمر ، ولله الأمر . أحوال متبددة ، ونفوس متبلدة ، وأشغال متعددة ، وإخوان خوان [٤] ، وخلان غيلان ، ورفاق ، وما أجمل الفراق ! وقلت :

إلام أعاني الصبر والدهر غادر وحتى متى أشكو ومالي عاذر
ولو أنني أشكو عظائم شدتي لميت لرقت لي العظام النواخر

وسألت عن فلان وفلان ، وهيان بن بيان [٥] ، ممن ينتسب للعلم وأهله ، ويتظاهر بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحية تعظم وتطول ، وشوارب تحف وتستأصل ؛ وعيون على مابها من غمص ورمص تكحل . . . فهم أعلم من أقلته الغبراء ، وأفقه من أظلته الخضراء ، وإن كان العلم غير هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحالات . . . . ياقوم : أهذا النحو وإعرابه ، والصرف

---

(١) نسمت الريح : تحركت وهبت .
(٢) اليراعة : القلم ، وهي في الأصل : القصبة .
(٣) الفترة : الضعف ، فالذهن الفاتر : المتعب المكدود .
(٤) خوان : جمع خائن .
(٥) هيان بن بيان : اسم لمن لايعرف ولا يعرف أبوه .

وأبوابه ، والعروض وأوزانه وأبحره ، والمعانى وإنشاؤه وخبره ، والبيان وفوائده والبديع وشواهده ، وهـــذه العلوم الموضوعة ، والأسفار المحمولة ، والدروس المأهولة ، والأصوات المهولة ، لمجرد معرفة ضرب زيد لعمرو ، وقتال خالد لبكر . وأن قال أصلها قول ، ثم لا يدرى ماحصل ، والطويل من فعولن مفاعيلن ، ثم لايعلم ، كيف ينظم ، والفصل والوصل ، ولا أصل ولافصل ، والحقيقة والمجاز ، وليس لهما مجاز ، والتورية والجناس ، مما يحفظ ولايقاس . إذ والله تكون تلك الفنون ، من أفانين الجنون ، ويكون الميل اليها ، والإقبال عليها ، عملا حابطا ، وشغلا ساقطا ، وهوسا عاطلا ، ووسواسا باطلا ؛ ويكون واضعوها أساءوا الناس ، وأخطأوا القياس ، وبنوا على غير أساس ، كلا إنما وضعوا هذه القواعد ، وشرعوا الناس تلك الموارد [1] ، ليتكلموا بكلام العرب مثل ماتكلمت ، ويفهموا من ألفاظها كالذى فهمت ، ويترجموا عن سرائر الضمائر كما ترجمت ، وينثروا وينظموا كما نثرت ونظمت . وقد كانت هـذه العرب التى أودع الله الفصاحة لسانها ، وشرف بسيدنا النبى والقرآن العربى مكانها ، تتكلم بهذه اللغة العلية ، على الفطرة الأصلية والسجية الجبلية ، من غير هـذه القواعد والأصول ، وتلك الأبواب والفصول . وكانت تعتد البلاغة مبلغ علاها ، وتعتقد الفصاحة من محاسن حلاها ، إلى أن خلف هذا الخلف ، فظنوا تلك الوسائل مقاصد ، ليس بعدها غاية لقاصد ، وحسبوا هذه الكتب تقصد لذاتها ، ويكتفى بالتعبد بكلماتها ، فوقفوا عندها ، ولم يتجاوزوهم لما بعدها ، واتخذوا الأدب وراءهم ظهريا [2] ، وجعلوا النظم والنثر شيئاً فريا [3] .

صور النثر فى هذه الفترة :

وقد تعددت ألوان النثر فى هذه المدة فشملت : نثر الصحافة . والخطابة ، وكتابة الرسائل ، وكتابة التأليف .

---

(١) الموارد : مواضع الماء يستقى منها . شرعوها : فتحوها .

(٢) أى نبذوه (٣) أى إثما .

حالة النثر فى هـذه الفترة :

لم يكن النثر الأدبى فى صدر النهضة الحديثة يجرى فى جد من الأمر ؛ أو يطلب جليلا من المعنى ولا ساميا من الأغراض . بل لقد كان كذلك يدور فى أبواب ضيقة من نحو كتب المودات ، والاستعطاف ، والشكوى والهناء ، والعزاء ، وضئيل من الوصف ، وما إلى ذلك ، كما كان يعنى به فى مقدمات الكتب وفى تقريظها . وأما من حيث صياغته ونسجه ، وترقرق الأخيلة فيه ، وشدة الارتصاد لطلب المحسنات ، واصطياد النكات البديعية واستكراهها على الكلام ، إن لم تكن صدور الكلام نفسه مهيأة من قبل لمجرد إصابة النكتة لا لإصابة شىء آخر ، فشأنه فى هذا شأن الشعر إلا أنه محلول والشعر معقود .

وأما لغة التأليف فى ذلك العهد فقد بلغت أقصى حدود الضعف والركاكة ، فوق الافتنان فى تعقيد العبارات بالمبالغة فى الإيجاز ، مما يحتاج فى تفهمه وتبين قصد المؤلف إلى شـــدة الجهد والمطاولة وقدح الأذهان . ولم يقف منهم هذا عند كتب التوحيد والنظر ، ولا عند كتب الشريعة : أصولها وفروعها ، بل يتعداه إلى كتب اللسان ، ومنها المصنفات فى البلاغة نفسها ! فإذا وقع لك فى أثناء هذه المؤلفات تعبير جيد أو فقرة فصيحة نيرة ، فإنما سقطت إلى الكتاب من اصطلاح مأثور ، أو كانت من نسج الأقدمين .

هذا هو شأن النثر فى الجملة ، وليس هذا بناف أن النثر كان فى بعض الأحايين على حظ من الإصابة ، وكرم المطلب ، وشرف اللفظ ، وإشراق الديباجة ، وتلاحم النسج . على أن هذا القدر لايدل على أدب العصر ، ولا على حظ المتأدبين من البلاغة فيه . على أن النثر كان أسبق من الشعر تطوراً بسبب انتشار علوم الغرب وفنونه ، فكان لابد لأداء هذه العلوم والفنون بالعربية من مراجعة معجمات اللغة وتقليب بجفواتها فى الأسباب المختلفة توسلا إلى تلك الغاية . وكان من أثر ذلك أن استخرجت صيغ قديمة ، وظهرت صيغ جديدة ، وجعلت اللغة تتطور تطوراً يشتد ويعنف باشتداد حركة الترجمة والتأليف ، ويلين ويفتر طوعا لينها وفتورها . إلا أن تفتح العيون على أسباب الحضارة الجديدة أمال صدرا من تفكير الكاتبين إلى المعانى ، وعدم استهلاكه كله فى نظم الألفاظ ، وكانت المكاتبات

الحكومية بعد استحالتها من التركية إلى العربية ، قد استدرجت هي الأخرى إلى تقليب الأذهان في وجوه الصيغ لأداء المعاني التي تطلبها وسائل الحكم المختلفة . على أن ذلك لم يصرف النثر الأدبي عن طبعه ، ولا عدل به عن مذهبه ، بل لقد ظل دهراً طويلاً على شأنه المعهود ، حتى لقد كان كثير من المراسلات الديوانية والتوقيعات الخديوية في طويل من عهد إسماعيل يلتزم فيها السجع وتتصيد لها ألوان البديع . والسبب في هذا يعود إلى أن النهضة إلى ذلك العهد كانت نهضة علوم لا نهضة آداب .

وقد ظل النثر إلى عصر إسماعيل يرسف في قيود المحسنات البديعة ، التي ورثها من عصور الضعف ، بل زاد ركاكة وضعفاً ، بما شاع فيه من ألفاظ تركية وعامية وأوربية . ذلك إلى ضيق الأغراض التي يتناولها ، إذ كان لا يعدو بعض الرسائل الديوانية والإخوانية .

فلما قوي نظام الدولة في عصر إسماعيل ، وترجمت الكتب العلمية إلى اللغة العربية ، وطبعت أمهـــات كتب اللغة والأدب العربي ، وأقبل المتعلمون على دراستها ، ومحاكاة أساليب النابغين من كتاب العربية ، في أزهى عصورها ، وذاعت الصحف والمجلات ، وعظمت العناية بتعليم الإنشاء في المدارس المصرية — نهضت الكتابة من كبوتها ، وتخلصت من أكثر القيود التي عاقت تقدمها ، وارتقت معانيها وأخيلتها . ودقت أساليبها ، وهجرت المقدمات والاستطراد ، وتأثرت عبارتها بالاطلاع على الأساليب الأوربية ، الخالية من الزخارف اللفظية ، ودخل فيها الكثير من العبارات والأساليب الأجنبية ، وتعددت موضوعات الكتابة ، فكان منها ما يأتي :

١ — الكتابة الديوانية : وقد بلغت منتهى الرقي في العصر العباسي الأول ، فكانت مظهر البراعة ، ثم غالى الكتاب بإدخال الحلى اللفظية فيها ، حتى غشت عبارتها ، وفشت فيها أخيراً العبارات العامية ، والألفاظ الدخيلة ، فكانت في منتهى الركاكة ، فلما كان عهد إسماعيل ، ونظمت الدواوين ، تولى أمرها رجال من كبار المضطلعين بالآداب ، كعبد الله باشا فكري ، فرق أساليبها ومعانيها ، ثم صار الموظفون لا ينالونها إلا بعد حصولهم على الشهادات المدرسية ، فكثر فيهم من يعنى بتجويد العبارة ، وتحريرها من القيود القديمة .

٢ — النثر الأدبي ، ويشمل الرسائل الإخوانية ، وقد كان كتاب الرسائل في العصر التركي ، يستعيرون أقلام غيرهم في إنشاء الرسائل ، فينقلونها عن صور موضوعة ، لتطابق أغراض العامة في ذلك العهد ، فلما ارتقى التعليم في عصر النهضة الحديثة ، ارتقت أساليب الرسائل ومعانيها ، وتنوعت أغراضها ، ونبغ فيها كثير من الكتاب ، كادوا يلحقون شأو نظرائهم في العصر العباسي ، مثل الشيخ أحمد مفتاح ، وحسن أفندي توفيق ، والشيخ محمد عبده ، وسلطان بك محمد ، ومحمود بك أبو النصر.

ومن النثر الأدبي : القصص والروايات ، ومقالات الوصـــف ، والتراجم التحليلية ، ومقالات النقد الأدبي : ومن أشهر كتابه المويلحي .

٣ — نثر الصحف ، ويكون في العادة سهلا مبسوط العبارة : لأنه خطاب لجمهور الأمة.

٤ — النثر الاجتماعي : ويراد به إصلاح الحالة الاجتماعية ، ونشر الأخلاق والفضائل ، والنظم الاجتماعية الجديدة.

أسباب ازدهار النثر الفني :

وقد علمت مما سبق بعض الأسباب التي أدت إلى ازدهار النثر الفني في الأدب الحديث ونهضته ، وأهم هذه الأسباب :

١ — العناية بدراسة اللغة وآدابها في المدارس والمعاهد والجامعات وخاصة في الأزهر.

٢ — إحياء مصادر الأدب العربي القديم وأمهات كتبه ، ونشرها مطبوعة ، وإقبال الشباب عليها يتزودون بما فيها من ثقافات وآداب.

٣ — إنشاء المجلات والصحف التي تعنى بالأدب.

٤ — إنشاء دار الكتب المصرية وسواها من دور الكتب العامة التي سهلت القراءة والمطالعة على الناس.

٥ — الاطلاع على النثر الأدبي المترجم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية

٦ — كما كان للثورات المصرية أثر كبير في نهضة الخطابة ، وهي لون من ألوان النثر ، ومن أعلامها : عبد الله النديم ، ومحمد عبده.

النثر العلمي وكتابة التدوين

تمهيـــد :

لما نهضت مصر نهضتها بعد جلاء الفرنسيين عنها ، اهتمت بالعلوم والثقافات القديمة والحديثة ، فأرسلت بعثات علمية إلى أوربا ، وفتحت المدارس في مصر التي استمدت طلبتها من الأزهر الشريف ، وأنشئت مدرسة الألسن للقيام بأعمال الترجمة . ثم فتحت دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعي ، وسواهما من المدارس .

أشهر المؤلفين في أول عصر النهضة :

وقد بدأ العلماء منذ عصر النهضة يؤلفون في شتى العلوم والفنون والآداب ، ومن أشهرهم : من العلماء الأزهريين : المشايخ الجبرتي ، والعطار ، والسقا ، والإمبابي ، والشربيني ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، ومنهم من غير الأزهر : رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك ، وصالح مجدي ، ومحمود الفلكي وعبد الله فكري .

لغة التأليف في هذا العصر وأشهر الكتب :

وكانت لغة التأليف في أول الأمر ضعيفة فلما زادت النهضة العلمية ، بإحياء وطبع الكتب العربية القديمة ، وبتوجيه الأزهر وفضله ، وبجهود رجال البعثات أخذت لغة التأليف تقوى وتزدهر وكثرت المؤلفات .

وقد كان أكثر الكتب التي ألفت أو ترجمت في مصر ، من الكتب العلمية ، لشدة الحاجة إلى العلوم . أما في سوريا فقد كانت حال الأدب هنالك من النصف الأول من العصر الحاضر خيرا منها في مصر ، ولكن مصر سبقتها في النصف الثاني لجعلت دراسة أدب اللغة في مناهج المدارس ، وانحطت اللغة في سوريا لعدول جماعات البعوث المسيحية عن التعليم باللغة العربية .

وفي هذه الأثناء نشرت مئات الكتب القديمة ، وفي مقدمتها : لسان العرب ومقدمة ابن خلدون والأغاني والقاموس المحيط ودواوين الشعراء المتقدمين ونهج

البلاغة وسواها ، فأدت إلى ازدهار حركة التأليف ونموها .

ومن الكتب التي ألفت : الخطط التوفيقية لعلي مبارك ، وحديث عيسى بن هشام للمويلحي ، وصهاريج اللؤلؤ للبكري ، ورسالة التوحيد للامام محمد عبده ، كما ترجمت كتب كثيرة من اللغات الأجنبية ، ومن أشهر المترجمين : فتحي زغلول ومحمد السباعي وسواهما .

ولقد كان أكثر الكتب التي ألفت أو ترجمت في مصر علمية ، لشدة الاحتياج اليها في تأييد حكومتها ، وإدخال إصلاحات في زراعتها وماليتها وإدارتها وقضائها ؛ أما سورية فكانت حالة الأدب فيها في أول العصر الحديث خيراً منها في مصر ، ولكن مصر نهضت في آخر العصر واسترجعت حياتها الأدبية ، وأدخلت دراسة أدب اللغة في مدارسها وألف فيه عدة كتب ، وانحط شأن سورية في العربية ، ولا سيما بين طوائف النصرانية ، لعدول جمعيات البعوث الدينية عن التعليم باللغة العربية إلى اللغة الأجنبية ، فلم ينبغ في العربية من السوريين في السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم .

كانت الكتب المؤلفة والمترجمة ركيكة العبارة ، لا تستقل بإظهارها يد واحدة ، فالعالم يترجم وعبارته غير صالحة للفهم مالم يتناولها المحرر بالصقل ، ثم هي بعد هذا الصقل واهنة ضعيفة ، وقد احتاج أصحابها إلى عهد إسماعيل باشا أن يخفوا نقصها بالسجع ، فكنت تراه في عناوين الكتب مثل : « حقائق الأخبار ، في أوصاف البحار » ، لعلي مبارك باشا ، و« بهجة المطالب في علم الكواكب » لاسماعيل مصطفى بك ناظر المهندسخانة ، و « الصحة التامة ، والمنحة العامة » لمحمد بدر أفندي وهكذا كما تراه منبثاً في عبارات تلك الكتب المحتملة للسجع مثل التاريخ والجغرافيا ونحوهما . وكان هذا السجع أثراً باقيا من تراث الماضي ، لم يترفع عنه أحد حتى أظهرت المطابع تلك الكتب الأدبية مثل : الأغاني ، والعقد الفريد ، والكامل للمبرد ، وأمالي القالي ، ومقامات البديع والحريري ، وتاريخ الطبري ، وابن الأثير ، وابن خلدون ومقدمته ، ونفح الطيب ، وكثير من دواوين الشعراء ، ورأوا أن تأثير الأسلوب في أكثرها لا يرجع إلى السجع ولا إلى المحسن البديعي ، فقر في نفوسهم أن الكمال الحق ، في التركيب ، وحسن السبك ، وارتباط أجزاء الكلام ، كما اتفق أن قيض الله للعربية نقاداً عابوا على الناس ماهم متورطون فيه من السجع ،

وكشفوا لهم عن وجوه البلاغة الحقة ، وحلوا على تتبع أساليب القدماء ، فكان لتقدم أثر جيل فى نزوع أهل العصر عن تلك اللازمة التى قيدت الكتابة العربية حينا طويلا، وغضت من جمالها ، وأول هؤلاء النقاد السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ٩ مارس ١٨٩٧) ، ثم روج رأيه كثير من الذين آمنوا به : كالشيخ محمد عبده ، فكان للاطلاع على أساليب الفحول المتقدمين ، والزراية على السجع من هؤلاء النقاد أثر عظيم فى انطلاق الكتابة من قيودها ، وتعويل الكتاب على القصد إلى المعنى ، وتأديته بأيسر لفظ وأبسطه .

وقد مضى ذكر كثير من أعلام المؤلفين والمترجمين فى شتى العلوم والثقافات .

الخطابة الأدبية فى هذه الفترة

وصف الخطابة :

كان المصريون والسوريون أوائل هذا العصر ، لا يستعملون الخطابة إلا فى الأغراض الدينية.

فلما كان عهد إسماعيل أنشأ المجلس النيابى الشورى سنة ١٨٦٦ م ؛ فكان ذلك سبباً فى ظهور الخطابة « السياسية » ، ولكنها كانت على جانب من الضعف فى الإبانة والتأثير.

وكان من أثر البعوث العلمية إلى أوربا ، وبخاصة إلى فرنسا ، أن كانت الحرية الشخصية مما أفادوه من تلك البلاد ، وكان أعضاؤها أول من دعا إلى الجامعة العربية ووافق ذلك غرض محمد على السياسى فأخذ بها كما أخذ الشرق فى الاستيقاظ وشعر بسوء حاله ، وأخذ يتحرك نحو مثل عليا خير من مثله ، وطالب بالحرية ونيل مكانته فى العالم ، ونهض بنشر الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى ، فظهرت الخطابة ، ونبغ الخطباء ، وتحررت الخطب الدينية من تقاليدها القديمة البالية ، ومست حيـــاة الناس الواقعة ، ورقيت الخطابة فى المجالس النيابية ، والمؤتمرات السياسية.

فلما جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ م . وكان رجلا ذا شخصية قوية ، وعبقرية فذة ، وسياسة ترمى إلى إنهاض الأمم الإسلامية ، التف حوله كثير من الأزهريين وبعض أدباء المصريين والسوريين ، فأدخلهم فى عداد جمعيته ، وألف منهم أندية ، كانوا يتناوبون الخطابة فيها كما قدمت ، وكانوا يتناولون فى أول الأمر الدين والأخلاق ، ثم تعدوا ذلك إلى السياسة ، فنشأ نمط راق من الخطابة بنوعيها « دينية وسياسية » ، وانتشر بين شبان مصر ، وفشا بعد عهد اسماعيل ، فولد رجال الثورة العرابية ، من أمثال عبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده .

ثم تفشى إنشاء الأندية والجمعيات الأدبية بمصر ، وفرق الخطابة والمحاضرة ، والمناظرة بالمدارس العالية والثانوية ، فظهر نوع من الخطابة يسمى الخطابة « العلمية والأدبية » ، وذلك فى الجمعيات التى ظهرت فى آخر هذه الفترة ومن بينها

الجمعية الخيرية الإسلامية التي أسست عام ١٨٧٨ .

وكانت هذه الجمعية تتبادل الخطب ليلا ، فى الموضوعات العلمية والتاريخية ، ومن خطبائها . عبد الله نديم ، وأديب إسحق ، وإبراهيم اللقانى ، وغيرهم .

وكذلك جمعية الاعتدال التى أسسها خريجو الكلية الامريكية سنة ١٨٨٦ ، وكان من أغراضها التمرن على الخطابة ، ومن أعضائها الدكتوران صروف ونمر صاحبا المقتطف ، وشبلى شميل ، وأحمد زكى باشا سكرتير مجلس النظار ، وحفنى ناصف بك مفتش اللغة العربية بنظارة المعارف والشيخ على يوسف صاحب المؤيد وغيرهم .
وكذلك الجمعية الجغرافية التى أسست عام ١٨٧٥ م ، وجمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا لنشر الثقافة فى مصر ، وجمعية العلم المصرى التى تأسست سنة ١٨٩٣ لإلقاء الخطب والمباحثات الاجتماعية ، وكان من أعضائها الشيخ محمد المهدى وإسماعيل عاصم بك ، ورئيسها السيد رفعت بك .

إلى غير ذلك من الجمعيات والنوادى التى أسهمت بحظ فى إنعاش الخطابة ، وترعرعها إلى الثورة العرابية .

ولما كثرت الصحف ، وتنبهت الأفكار ، وتعلمت الشعوب المطالبة بحقوقها ، وكانت العلوم التى راجت عند المصريين وغيرهم من أمم الشرق خصوصا أهل الشام ، قد أنارت البصائر وأشعرت الناس بكرامتهم ، وعرفتهم معنى الوطن والذياد عنه ، ومناهضة المستبد بشئونه ! وقامت من جراء ذلك ثورة الشام التى أعلن فيها أهلها السخط على عسف الحكومة العثمانية ، ولجأ هؤلاء الفارون من وجه الظلم إلى مصر ، وانضم إلى ذلك نزول السيد جمال الدين الأفغانى ، اجتمع لمصر من كل ذلك أسباب لنهوض الخطابة من عثارها الذى طال عليه الأمد ، وامتدت به الأيام ، وكان من أمر جمال الدين أن جمع حوله كل شاب ناهض ممتلىء بالآمال من طلاب الأزهر وغيرهم ، فجعل جمال الدين يوقفهم على أسرار الحياة ، ويبث فيهم معنى الوطنية ، وينبههم إلى تربص الغرب بالشرق ووجوب التحرر من ذلك ، وينتقد لهم أساليب التعليم بالأزهر وغيره ، ويعيب على المنشئين طرقهم اللفظية الجوفاء الخالية من الروح الممثلة فى السجع والمحسنات ، ثم أخذ يدربهم على ارتجال القول ، ويعودهم النقاش فى الأمور الاجتماعية الكبرى ، حتى تتفتق أذهانهم ، وتلين بالقول الصحيح ألسنتهم ، فأغرم هؤلاء الشباب بجمال الدين ،

واشتد تعلقهم به وولعهم بأفكاره ، وجاوزوا القول فى أمور الاجتماع والأخلاق إلى السياسة ، فانعقدت لذلك جمعية سرية بحلوان ، ولكن حكومة إسماعيل ، وهى مانحة الحرية رأت أن القوم جاوزوا فيها الحد . فكبحت جماحهم ، وبعد أن كانت مرحبة بجمال الدين تجرى عليه كل شهر عشرة جنيهات معونة وتقديراً لفضله غلت يدها عنه . ونفته إلى خارج القطر المصرى ، ولكن جذوته التى أشعلها صارت لهيباً متدلعاً .

فاستمر المصريون يجتمعون ويخطبون فى الأمور العلمية والأخلاقية ، وألفوا الجمعيات الكثيرة لذلك ، وبعض هذه الجمعيات قامت على أسس متينة لخدمة أغراض محدودة ، عمل أعضاؤها على تنفيذها ، كالجمعية الخيرية الإسلامية التى أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٨م ، فإنها جعلت غرضها فتح المدارس لتعليم البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم . وكان من خطبائها : السيد عبدالله نديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحق ، وإبراهيم اللقانى ، وغيرهم .

حالة الكتابة فى هذا العهد

كتابة الدواوين :

مضى العصر المتقدم ، وليس لكتاب الدواوين فى أواخره شأن يذكر لجعل التركية هى اللغة الرسمية ، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية إلا قليلا ، وشرعت تتغير فى مصر ، إلا أنه لم يكن ترقى بها من فتيان المسلمين من يتولى الكتابة فى مناصب الحكومة ، فكانت مقاليدها فى يد كتبة القبط ، واشتهر من بينهم المعلم غالى ، وكان رئيساً للكتاب وكاتب سر محمد على وقتل سنة ١٨٢١ م ثم استخدمت الحكومة رجال البعوث العلمية ، وتلاميذ المدارس المنشأة بمصر والسوريين فى أعمال الكتابة فتقدمت شيئاً ما . ويعرف ذلك من صورها السقيمة المدرجة فى أعداد الوقائع المصرية لذلك العصر ، ثم لما أنشئت المدارس النظامية وتولى التدريس بها مشايخ الأزهر ثم متخرجو مدرسة دار العلوم نشأت طبقة من كتاب الدواوين رقوا كتابتها . وقد هجروا السجع الذى أكثر منه الأقدمون ، إلا أن عبد الله باشا فكرى أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألم به فى كثير من مكاتباته الرسمية . ومن أهم البواعث على نهضة هذا اللون من الكتابة تعلم اللغة الأجنبية والترجمة عنها لأنها أقرب إلى الطبيعة من الطرق الموروثة عن مسترقى الفرس فى العصور الوسطى . وكذلك انتشار الصحف ورقى الصحافة العامة .

وهذه صورة لكتابة الدواوين فى آخر هذا العهد . وهى بتاريخ ٢٩ جمادى سنة ١٢٩٧ هـ ، الموافق ٧ يونيه سنة ١٨٨٠ م ، وهذا نصه :

« قد علم لدينا من الإنهى الذى تقدم لطرفنا من عبد الله سليمان ، ومن مكاتبتكم الواردة لمعيتنا أن الشخص المذكور كان مستخدماً من ضمن أسطوات الجبه خانة الترك ، وفى أثنى خدامته تعين لتوصيل مركب البارود خانة بالبارود مشحونها إلى جبه خانة المدوية ، وعند الوصول إليها خرج من المركب وتركها ، فأصابها الحريق بمشحونها ، وقد نسب له الإهمال والتساهل فى ذلك ، وحكم عليه فى مجلس عسكرى بطرده من الخدامات بموجب مضبطة رقم ١٤ ش سنة ١٢٨٩ هـ نمرة ١٣ وصدر عليها أمر التنفيذ ، ولمضى مدة سنين عليه وهو محروماً (؟) من الخدامة يسترحم

العفو عنه ، وحيث إن هذا الالتماس قورن بمساعدتنا ، فاقتضت إرادتنا العفو عن عبد الله سليمان المذكور ، وأصدرنا أمرنا هذا لكم بذلك لإجرى إيجابه .

٢ — وهـــذه صورة لأمر بتبليغ الأقطار السودانية تولية توفيق عرش مصر ، وهـذا النوع هو الذى كان يسمى قديماً كتابة الإنشاء التى كان يتولاها فحول الكتاب ، فانظر كيف تبدل بها الحال ، وهذه صورة الأمر ، وقدصدر فى إبريل سنة ١٨٨٠ م .

من خديو الأقطار المصرية ، وماوالاها من الأقاليم السودانية ، والدار فورية ومدينة هرر وزيلع وبربره وبلحار وتجره والسومال وإيجالا وما يتبع ذلك من سواحل إفريقية الغربية ، إلى الجناب المعظم المبجل ، والملك الأفضل الأعدل ، الإمام الهمام ، والمحفوف بعناية الملك العلام ، الإمام أحمد ملك الأقاليم « وللو » حرسه الله ، وزاد مجده وعلاه . أما بعد : فإن الله جلت قدرته أراد ، ولا مانع لما أعطى ولا راد ، أن تكون حكومة مصر بملحقاتها المعلومة فى وفى نسلى ، وهذا من فضل ربى ، لامن فضلى ، فأعتقد أن العدل بين الناس ، هو لمبانى الحكم خير أساس . فلذا التزمت الرفق والعدل ، والإحسان وحسن المعاملة ، مع الجميع باللطف والمجاملة ، فنسأل الله أن يرزقنا الفلاح ، ويوفقنا لما فيه الخير والإصلاح . ومن حيث المعلوم لجنابكم السامى ، ومقامكم الرفيع النامى ، أن حكومتنا الخديوية وحكومتكم البهية ، تجمعنا جميعاً كلمة التوحيد ، فلهذا يكون الأمر السديد . ازدياد حسن العلاقة والوداد ، وإحكام الألفة والاتحاد ، سيما وحضرتكم الجار الأكرم ، فالأولى أن يكون لنا من ودكم النصيب الأعظم ، إذا جل مقصودنا استمرار هذه هذه العلاقة على أحسن أسلوب ، فوق المأمول والمطلوب ، بحيث لايعتريها نقص ولا إخلال ، بحال من الأحوال .

الكتابة الفنية :

تتجلى مظاهر الكتابة الفنية فى إنشاء العطار ، وعبدالله فكرى . وغيرهما من فرسان الأدب والبلاغة فى هذا العهد .

ولقد كانت الكتابة الفنية فى أول أمرها مثقلة بالقيود والأغلال ، والصنعة والابتذال ، والعامية والسجع المرذول ، وفى أواخر هـذا العهد بدأت الكتابة

الفنية تستيقظ ، وتعاود السير فى طريق النهضة والرقى والعربية الفصيحة .

ولقد كان للصحف أثر بليغ فى رقى الكتابة الفنية ورفع مستواها على وجه عام . ذلك بأن الصحف إنما يتولى تحريرها فى الغالب ، جماعات من الأدباء الذين حصلوا صدراً من اللغة ، واطلعوا على آدابها ، وقلبوا الذهن فى بلاغات البلغاء من المتقدمين والمتأخرين . ومرنوا على الكتابة فى ألوان الموضوعات التى تتصل بالحياة ، حتى أصبح لهم حظ من البيان غير يسير . هذا إلى أن الصحف ، والمجلات الأدبية ، بنوع خاص ، كثيراً ماتدعو أعلام البلاغة وأئمة البيان إلى الكتابة فيها ، وكثيراً مايتقدمون هم لذلك ، فيرسلون كل رائع بديع من عالى المقال .

وكيفما كان الأمر ، فإن من يكتب فى هـــذه الصحف السيارة ، يدرك حق الإدراك أنه لايعرض بيانه على فرد أو على افراد ، وإنما يعرضه على جماهير الناس ، وأنه بذلك متعرض لحكمهم عليه ، ووزن حظه من العلم والأدب ، ومن صناعة القلم . فهو ولاشك باذل قصارى جهده فى إصابة أحسن المعانى ، وإفراغها فى أشرف الألفاظ ، ونسجها فى أحكم نظام .

ولا ننسى مايقوم كل يوم بين جماعات الكتاب من المناقشات والمساجلات فى الشؤون السياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها . وذلك ولا ريب ، مما يحفز الهمم ، ويشحذ القرائح ، ويزكى الأقلام ، طلباً للظفر بالخصم ، ورفعاً للصيت ، واستخراجا لإعجاب جماهير القراء .

ومن الواضح أن مداومة قراءة الصحف ، وترديد النظر فيما يجرى فيها من الموضوعات كل صباح ومساء ، من شأنه أن يوسع دائرة المعـــلومات العامة ، ويفتح نواحى الذهن . فيطلع القارىء لها على كثير مما كان خافيا عليه من المذاهب والآراء فى أسباب الحياة . ومن شأنه كذلك أن يألف طبعه الأساليب البليغة ، والتعبيرات الطريفة الأنيقة ، فلا يطول الزمن حتى يحبها ويعشقها ، ولا يستريح إلى غيرها من الركيك المسف فى الكلام .

وقد تتصل هذه الأساليب مع كثرة المعاودة بنفسه ، وتلصق على طول إدمان الفكر بطبعه ؛ فإذا هو أقبل على معالجة الكتابة وتحرى للبيان ، حاكاها وجعل يقلدها فى نظم المقال ، وكثيراً مايسلك فى مقاله بعض ماوقع له ؛ فأعجبه وراعه ،

من رشيق الألفاظ ، وبديع التعبيرات ، ومما يشيع هذه الأساليب فى نفسه ، ويدنيها إلى طبعه ، ويثبت مايقرأ من الصيغ فى ذهنه ، وينضجها على لسانه وقلمه أن أكثر ما يقرأ فى الصحف ، متصل بما يدور حوله ، ويقع كل حين لسمعه وبصره ، ويشغل بقدر كبير أو صغير ، جزءاً من اهتمامه .

ولم تكن الكتابة الفنية فى صدر هذا العصر تجرى فى جد من الأمر ، أو تطلب جليلا من المعنى ، أو ساميا من الأغراض . بل كانت كذلك تدور فى أبواب ضيقة من نحو كتب المودات والاستعطاف والشكوى وما إلى ذلك .

وأما من حيث صياغتها ، ونسجها وترقرق الأخيلة فيها ، واصطياد المحسنات واستكراهها على الكلام . فشأنها فى هذا معروف . بل ربما كان حظها خيراً من حظ الشعر ، لأن المثقفين من الناثرين ثقافة غربية كانوا أكثر عدداً من المثقفين من الشعراء ، وذلك طبيعى فى نهضة قوامها الحركة العلمية . والثقافة المادية . على أن ذلك لايمنع أن ترى فيما انتضحت به بعض الأقلام من الكلام إشراقا فى الديباجة ، وتلاحما فى النسج .

ويظهر الفرق بين الكلام الردىء فى ذلك العصر ، والكلام الجيد فيه فى هذين المثالين : الأول للكلام الردىء ، والثانى للكلام الجيد .

يقول الجبرتى فى الحديث عن نبأ محاولة محمد على إدخال النظام الجديد فى الجيش « أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم ، والرماحة خارج باب النصر حيث قبة العزب ، فخرجوا من تلك الليل الأخير ، وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود على طريقة الإفرنج ، وذلك من قبيل الفجر إلى الضحوة . ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين إلى المدينة فى كبكبة عظيمة ، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية ، وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم ، بل وحميراً أيضا . وأشيع أن الباشا قصده إحصاء العسكر ، وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الإفرنج ، وتلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم ، وركب فى ثانى يوم إلى بولاق ، وجمع عساكر ابنه إسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد ، وعرفهم قصده ، وفعل ذلك بجميع العساكر » .

هذا هو الأسلوب الردىء الركيك الخالى من جمال البيان وسحر التعبير .

وكتب رفاعة بك الطهطاوى يذكر رأيه فى موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى باريس قال : « فلما اشتد الأمر ، وعلم الملك بذلك وهو خارج . أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ؛ مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء أحبابا له وللرعية . غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكنه أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه ، مع ان استصلاح العدو احزم من استهلاكه » وهو مثال للكلام الجيد .

ولقد كان من أثر الشخصية فى الكتابة ، أن ظهر غير واحد من طلاب الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى ، وانبرى كل واحد للكتابة فيما عنى به من نواحى الإصلاح ، فاشتهر كتاب فى الاجتماع والشؤون الدينية ، وآخرون فى الكتابة الصحفية ، وآخرون فى الكتابة الأدبية ، ودخل الكتابة روح سياسى حماسى بسبب الحركة السياسية الوطنية فى أواخر أيام إسماعيل وأوائل أيام توفيق ، وبخاصة بعد نزول جمال الدين الأفغانى مصر الذى أذكى الحماس ، وأيقظ النائمين ، وبعث فى مصر حركة أدبية جديدة .

وقد أدركت مصر فى آخر هذا العهد حظاً محموداً من الحضارة ، فشاعت فيها العلوم ، واستوثق الاتصال بينها وبين بلاد الغرب التى كثر روادها من المصريين ، وانحدر العديد الأكبر من الغربيين إلى هذه البلاد سياحا ومستوطنين ، كما نزحت إليها طائفة من أعيان الأدباء والكتاب السوريين .

بهذا وبذلك جعلت الثقافة العامة تلون بلون جديد وجعلت الأقلام تستشرف ، بقدر ما إلى أسباب الحضارة الحديثة ، ولا يفوتنا أن المطالب العسكرية فى ذلك الحين ، لم تصبح مما يستغرق هم القائم ، بل لقد انبسط منه فضل كبير للاداب وللفنون ، وكان أول ما انبعث فى هذين البابين : الصحافة الشعبية والتمثيل .

ولقد انبعث ـ طوعا لهذه الحال ـ جماعة من مشيخة العلماء فى طلب أدبه

خير مما عانوا من أدب ، فكان أول ما طلبوا بجفوات كتب الأدب القديم ، واستخرجوا دواوين الفحول من متقدمى الشعراء ، وجعلوا يتروون هذا الأدب الجزل ويرونه تلاميذهم بالدرس والمحاضرة ، وبمجلة روضة المدارس التى كانت مجالا لأبرع الأقلام فى ذلك العهد . فاستقامت الملكات ، وصفت الطبائع ورهفت الأذواق ، وجرت فصاحة العربية ناصعة على بعض الأقلام من أمثال : إبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى من الكتاب ، وعبد الله فكرى ، وسامى البارودى من الشعراء .



الشعر فى هـذه الفترة

صور للشعر :

١ — قال الشيخ شهاب الدين محمد بن إسماعيل المصرى من قصيدة لتكتب حول جامع القلعة (١٢٦١) :

عروس كنوز قد تحلت بمسجد   مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنى عالى قصورها   بأبهج ياقوت وأبهى زمرد
أم المكرمات الآصفية(١) أبدعت   هيولى أعاجيب بصورة مسجد
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى   بزهر الدرارى جامعاً كل فرقد
ألا إن تجديد العجيب من البنا   يؤكد تأسيس اقتدار المجدد

ومنها :

محمد آثار على مآثر   عزيز افتخار ساد كل مسود
هو المنهل العذب الذى دون ورده   تزاحمت الأقدام فى كل مورد
هو الغيث يحيى كل قطر بجوده   فيخضل من قطر الندى وجه الندى
هو الشمس لم تحجب سناها غمامة   ولا أنكرت أضواءها عين أرمد
له همة تسمو إلى هامة العلا   إذا جددت لاتنتهى بالتجدد

وفى آخرها :

وهاك عقوداً من معان أجادها   بيان بنا هـذا البديع المجدد
مبان إذا أمعنت فيها مؤرخا   تريك على قدر العزيز محمد

٢ — وقال السيد على أبو النصر يؤرخ قدوم الخديو إسماعيل من الاستانة ويذكر فرمان الوراثة وولاية العهد الذى حضر به سنة ١٢٩٠ هـ :

ألا وهيامى فى شقائق خده   وفرط غرامى فى رشاقة قده
لقد كنت عن شكوى التصابى بمعزل   وكان فؤدى فى الهوى طوع زهده
ولما دعاه للمحبة ناظرى   أجاب فأمسى شاربا كأس وجده

---

(١) نسبه إلى آصف وزير سليمان عليه السلام .

وبات على جمر الغضا يستفزه ... خيال دعا جفن المعنى بسهده
وهام بظبي تتقي الأسد بأسه ... وتخشى تجنيه وإفراط صده
غزال غزا باللحظ وهو بجفنه ... ولم أر سيفاً صال وهو بغمده
وماكنت أرضى بالصبابة مذهباً ... لجاذبني عما ألفت لصده
دعوني أداوي النفس من لوعة الهوى ... برشف لماه أو بتقبيل خده
ولا تعذلوني حين عذري واضح ... وسائل دمعي لايقال برده

٣ — وكتب الخشاب على ظاهر ديوان صديق له من الشعراء يداعبه :

قل للرئيس أبي الحسين محمد ... خدن المعالي والسري الأمجد [١]
والحاذق الفطن اللبيب أخي الذكا ... ء اللوذعي الألمعي الأوحدي [٢]
ألزمت نفسك في القريض مذاهبا ... ذهبت بشعرك في الحضيض الأوهد [٣]
كدرت منه بما صنعت بحوره ... فغدت مشارع ليس ينحوها صدي [٤]
فإذا نظمت فكن لنظمك ناقداً ... نقد البصير بذهنك المتوقد

---

(١) الخدن بكسر الخاء وسكون الدال : الحبيب والصاحب . والسري : السيد الشريف السخي .

(٢) اللوذعي : الذكي الذهن . والألمعي : الذكي المتوقد الذكاء .

(٣) القريض : الشعر . والحضيض : القرار من الأرض عند أسفل الجبل ، والأوهد : العظيم الانخفاض . والمراد أن شعره نزل إلى أسفل الدرك . وقد صرف (مذاهب) لضرورة الشعر .

(٤) كدر الماء : أذهب صفاءه بالطين ونحوه ، والمشارع جمع مشرع بفتح الميم وهو مورد الماء . وينحوها : يقصدها ، والصدي بفتح الصاد وكسر الدال : الشديد العطش .

أولا فدع تكليف نفسك واسترح   من قولهم : ما شعره بالجيد
ولئن عنفت عليك فيما قلته   فلقد بذلت النصح للمسترشد[١]

٤ — وقال الشيخ حسن العطار فى الغزل :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه؟   أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه ؟[٢]
هجر الكرى لما هجرت وواصلـ   ـه شجونه وازداد فيك نحيبه[٣]
لم يجن ذنباً فى هواك ، وإنما   قد كان بالهجران منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك بعد ما   جادت عليك دموعه ونسيبه[٤]
لو للقا عطفتك منه شكاية   رقت ودمع طافح شؤبوبه[٥]
لرأيت جسماً كالخلال من الضنا   ولهيب قلب مقلتاه تذيبه[٦]
صله لتستبق به الرمق الذى   لولا الأمانى ما بقى موهوبه[٧]
ألزمت نفسى الصبر فيك تأسياً   والصبر أصعب ما يقاد نجيبه[٨]
وبليت منك بكل لاح لو تبـ   ـدى نحو طود أثقلته كروبه[٩]

---

(١) عنفت : قسوت ، المسترشد : طالب الرشد والهداية .
(٢) وجيبه : اضطرابه وخفقان قلبه .
(٣) الشجون : جمع شجن بفتحتين : الهموم والأحزان ، والنحيب : البكاء الشديد
(٤) النسيب : رقيق الشعر فى الغزل .
(٥) عطفتك : أمالتك إليه وحببتك ، الشؤبوب بضم الشين : الدفعة من المطر وجمعه شآبيب.
(٦) الخلال : يريد بها الأعواد الدقيقة التى يتخلل بها ، الضنى الضعف والهزال .
(٧) الرمق : بفتحتين بقية الحياة ، يقول : إنك وهبته بقية من الحياة فلا تقض عليها بالهجر ، بل استبقها بالوصل .
(٨) التأسى : التصبر والتعزى ، والنجيب : البعير الكريم .
(٩) اللاحى : الشاتم العائب ، والطود بفتح الطاء وسكون الواو : الجبل العظيم . كروبه : مصائبه الشديدة .

أفلا رثيت لعاشـــق لعبت به ... أيدى المنون ونازعته خطوبه[١]
أنت النعيم له ومن عجب تعـ ... ـذبه ، وتمرضه وأنت طبيبه !

وقال يصف بركة الأزبكية :

بالأزبكية طابت لى مسرات ... ولذ لى فى بديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة ... كأنها الزهر تحويها السموات[٢]
وقـــد أدير بها دور مشيدة ... كأنها لبدور الحسن هالات[٣]
والماء حين سرى رطب النسيم به ... وحل فيه من الأدواح زهرات[٤]
كسابغات دروع فوقها نقط ... من فضة واحمرار الوجه طعنات[٥]

٥ ـــ وقال السيد على الدرويش(٦) يرثى صديقه المرحوم الشيخ على الغلبان :

أفر من المحتوم وهـــو مطاردى ... وهل أملى إلا حبال المصايد(٧)

---

(١) رثى له : رق له وعطف عليه ، المنون : الموت .

(٢) الفلك ـــ بضم الفاء وسكون اللام ـــ السفينة ، واللفظ جمعه كلفظ مفرده والمراد ، بالزهر ، بضم الزاى : النجوم المشرقة .

(٣) الهالات : جمع هالة ، وهى الدائرة التى ترى حول القمر .

(٤) الأدواح جمع دوحة بفتح الدال ، وهى الشجرة العظيمة .

(٥) الدروع : جمع درع ، وهى القميص من زرد الحديد يلبسه المحارب يتقى به سلاح العدو ، والدروع السابغات : الطويلة الضافية ، والشاعر يشبه البركة وما يعلوها من الزبد والفقاقيع بالدروع الضافية ترصع بالفضة ، ويشبه الورد فيها بالدم من آثار الطعنات .

(٦) هو السيد على أفندى الدرويش بن حسن المصرى ، كان أديبا شاعراً ولوعاً فى شعره ونثره بالمحسنات البديعية للغاية القصوى . وهو أبرع من نبغ فى التواريخ الشعرية ، وله ديوان شعر كبير ، وتوفى سنة ١٢٧٠ هـ

(٧) المحتوم : الحادث الذى لا مفر من وقوعه .

وأرصد أفق الوهم والأمل السهى ... ورائد موتى كامن فى ورائدى(١)

وثقت بآمالى ، ولم تف مرة ... ولا ثقة لى بالنذير المعاهـــد

فأستبعد المعلوم ، وهو مقاربى ... وأستقرب المجهول ، وهو مباعدى

ومن عتهى خلت التجاهر خافيا ... بغش زيوف عدها كل ناقد(٢)

أحاذر مرأى الناس لا الله فى الهوى ... وعندهم تفصيل نقصى وزائدى

لأمارتى بالســـوء مستعبد ولى ... مداهنة فى الله صورة عابد(٣)

أبالغ فى الإسراف حتى كأننى ... لميت غداً ، لكن لى حرص خالد

٦ — وقال الشيخ ناصيف اليازجى(٤) فى الغزل :

حواك وقد حللت بكل قلب ... فؤاد لم يحل به ســـواكا

نزلت به على طلـــل تفانى ... ولست بمن على طلل تباكى(٥)

---

(١) ورائد موتى : وطالب موتى ، ورائد : جمع وريد وهو عرق فى العنق.

(٢) عتهى : العته بفتحتين : نقص العقل بلا جنون ، زيوف : جمع زيف بفتح فسكون وهو الدرهم المغشوش ، يقول : ومن نقص عقلى وقصور تفكيرى ظننت أن الجهر بالأمور الباطلة المغشوشة التى راج غشها على الناس ، أمر خاف على الله .

(٣) أمارتى بالسوء : نفسى .. المداهنة فى الله : أن تظهر له خلاف ما تبطن ، يقول إنى مستعبد لنفسى خاضع لميولها ولكننى أظهر خلاف ما أبطن نفاقا ومداهنة فأظهر بصورة العابد الطائع ، على حين أجارى نفسى وأخضع لها فى الخفاء .

(٣) هو ناصيف بن عبد الله اليازجى ، شاعر من كبار الأدباء والمنشئين ، له بحوث مختلفة فى فقه اللغة ، وله كتاب مجمع البحرين ، وهو مجموعة مقامات مثل مقامات الحريرى ، وكتب أخرى فى النحو ، وتوفى سنة ١٢٨٧ هـ

(٥) الطلل : الشاخص من آثار منزل قديم ، يقول : نزلت بقلبى على أثر بال من شدة الوجد والوله ، تفانى فيك غراما ، ولكنك لم تبك عليه ولم ترق له شأن الذين يشهدون الآثار البالية فيأسون عليها .

أطمعت العاذلين بقتل صب ... يريد القتل لكن عن رضاكا
تعز كرامة ، ويهون ذلا ... فتأنف أن يقول : دمى فداكا

وقال :

كف عنى لا أبالك ... قد تبينا محالك (١)
قد عرفناك وإلا ... فمتى تعرف حالك
قد مضى لى بك عصر ... حاملا فيه ملالك
حسب قلبى منك جور ... كاد منه يتهالك
وكفانا ما احتملنا ... منك فاستدع احتمالك
سترى النادم منا ... ويسىء الله فالك

ومن قصيدة يرثى بها صديقا له :

قد كنت أنتظر البشرى برؤيته ... فجاءنى غير ما قد كنت أنتظر
إن كان قد فات شهد الوصل منه فقد ... رضيت بالصبر لكن كيف أصطبر
أحب شىء لعينى حين أذكره ... دمع وأطيب شىء عندها السهر
هذا الصديق الذى كانت مودته ... كالكوثر العذب لايغتالها كدر (٢)
لاغرو إن أحزن الزوراء مصرعه ... فحزنه فوق لبنان له قدر (٣)

٧ — ومن شعر السيد محمد صالح مجدى (٤) :

ما كتب به إلى سعيد باشا والى مصر يشكو إليه ظلم رئيسه :

---

(١) المحال بكسر الميم : الخديعة والكيد .

(٢) يغتالها : يخالطها فيقضى عليها

(٣) الزوراء : مدينة حلب

(٤) هو محمد بن صالح بن أحمد بن الشريف مجد الدين ، عالم مترجم ، وأصل آبائه من مكة ، وقد ولد بالقاهرة وتعلم فى مدارسها وأتقن الفرنسية وترجم عنها بعض الكتب ، وندبه إسماعيل باشا لترجمة القوانين الفرنسية ، واشترك فى وضع الخطط التوفيقية ، وتوفى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ

أنظر فى زمانك ياسعيد   وأنت العادل الملك الرشيد
ويسطو الذئب من شره علينا   وأنت الليث والبطل المجيد
ويرق غيرنا رتب المعالى   ويخفضنا بلا سبب عنيد
ويظفر بالأمانى كل راج   ونحرم من جنابك ماتريد
فرد نوائب الملوين عنا   فرأيك دائما رأى سديد(١)
وجود يديك فاض على الرعايا   فسر قريبهم وكذا البعيد(٢)
ودم فى نعمة وثبات ملك   فقيك الشكر مادمنا ، يزيد

وقال السيد على أبو النصر (٣) فى التحسر على فراق أحبابه :

لقد ذهب النوى بجميل صبرى   وأودع فى حشاشتى الولوعا(٤)
وألبسنى الأسى خلع التمنى   وألزمنى التذلل والخضوعا(٥)
ونار الشوق أغراها غرامى   على كبدى فقومت الضلوعا(٦)
ولى قلب تقلبه شجونى   وتمنعه السكينة والهجوعا(٧)

---

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) جود يديك : كرمك وعطاؤك

(٣) هو الشريف العالم الشاعر الزجال ، أصله من منفلوط بأسيوط ، درس بالأزهر وبرع فى الأدب ؛ واتصل بالبيت الخديوى من عهد محمد على إلى عهد توفيق ، ويعد شعره متوسطا ، وله ولع بالتاريخ الشعرى ، وقد توفى سنة ١٢٩٨ هـ

(٤) النوى : البعد والفرقة ، والحشاشة بضم الحاء : بقية الروح . والولوع بفتح الواو شدة العشق

(٥) الأسى : الحزن والهم ، خلع جمع خلعة بكسر فسكون ، وهى الثوب الذى يعطى منحة

(٦) يريد أن نار الشوق لشدتها جعلت أضلاعه مستقيمة بعد أن كانت منحنية . (٧) الهجوع النوم فى الليل .

يبيت مع الأحبة حيث كانوا   ويصبح راجيا منهم رجوعا
يرى أضغاث أحلام الأمانى   حقائق لايزال بها ولوعا(١)
تطوف به الحوادث وهو لاه   كأن الوهم ألبسه دروعا
ورب مكابد عانى خطوبا   ومفرد عزمه عز الجموعا(٢)

وقائلة : إلام تحن شوقا   إلى حى أحل بك الهلوعا(٣)
فقلت لها: وقيت البأس . إنى   أود بحبهم أدعى هلوعا(٤)
أبعد فراقهم ترتاح روحى   وترجو ساعة أن لا تلوعا(٥)
فهم روحى وريحانى وراحى   فكيف أرى إلى السلوى نزوعا(٦)

٨ — وقال صفوت الساعاتى(٧) يرثى الأديب الشيخ حسن قويدر :

ياشمس فضل فدتك الشهب قاطبة   إذ عنك لا أنجم تغنى ولا شهب

---

(١) أضغاث الأحلام : المختلطة الملتبسة ، والولوع بفتح الواو : الشديد الولع وهو الحب .
(٢) عز الجموع : غلبها
(٣) الحى : منازل القوم ، والهلوع بضم الهاء الجزع
(٤) البأس : الشدة ، الهلوع بفتح الهاء : الشديد الجزع .
(٥) تلوع تمسها حرقة الحزن .
(٦) الراح : الخمر . نزوعا : ميلا .
(٧) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا ، شاعر مصرى ، ولد بالقاهرة وتعلم بها ، واتصل بشريف مكة فلازمه فى بعض وقائع وسفها فى شعره ، ثم استخدم فى المعية ثم فى مجلس أحكام الجيزة والقليوبية ، واشتهر بالساعاتى لبراعته فى فن الساعات ، ولكن لم يحترفه . وكان حلو الحديث حسن المحاضرة ، مات سنة ١٢٩٨ هـ

لما أصابك لا قوس ولا وتر ‏ ‏ ‏ ‏ سهم المنية كاد الكون ينقلب

ما حيلة العبد والأقدار جارية ‏ ‏ ‏ ‏ العمر يوهب والإيام تنتهب

لو افتدتك المنايا عند ما فتكت ‏ ‏ ‏ ‏ بخيرنا لفدتك العجم والعرب

سقى ضريحك غيث العفو منسكبا ‏ ‏ ‏ ‏ ولا ارتوت بعدك الأغصان والعذب(١)

ولا استهلت عيون القطر باكية ‏ ‏ ‏ ‏ إلا عليك وإن حلت بنا النوب(٢)

---

(١) الغيث : المطر . العذب بفتحتين ، الأغصان أيضا

(٢) القطر بفتح القاف : المطر ، والنوب بضم النون وفتح الواو : المصائب واحدتها نوبة

تراجم الشعراء فى هذا العصر

الخشاب الشـــاعر

هو السيد إسماعيل الخشاب الشاعر الأديب ، كان والده نجاراً ، ولما راجت صناعته فتح مخزناً لبيع الأخشاب بجانب تكية الكلشنى بالقرب من باب زويلة ، وأرسل ابنه إلى الكتاب ، فحفظ القرآن ، ثم طمحت نفسه إلى طلب العلم فذهب إلى الأزهر ولازم حضور حلقة السيد على المقدسى وغيره من أفاضل الوقت فأنجب فى فقه الشافعية والمعقول بقدر الحاجة ، وشغف بمطالعة الأدب والتاريخ والتصوف ، حتى أصبح نادرة عصره فى المحاضرات والمحاورات واستحضار المناسبات ، ولدماثة أخلاقه ، ولطف سجاياه ، وكرم شمائله ، وخفة روحـــه ، صحبه كثير من أرباب المظاهر والرؤساء والكتاب والأمراء وكبار التجار ، يقول لنا الجبرتى : إن شاعرنا السيد الشريف أبا الحسن إسماعيل بن سعد بن إسماعيل الوهبى الحسينى الشافعى كانت له قوة استحضار فى إبداء المناسبات حسبما تقتضيه حال المجلس ، فكان يجانس ويشا كل كل جليس بما يدخل عليه من السرور ، ويأسر لبه بلطف سمره ومنادمته الجذابة الخلابة ، ولما دخل الفرنسيون مصر عين المترجم له محرراً لتاريخ حوادث الديوان وقرر له الجنرال جاك منو فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة .

وقد كان له صديق من رؤساء كتاب الفرنسيين جميل الصورة لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، ويحفظ كثيراً من الشعر ، فلتلك المجانسة فى الميول ، مال كل منهما إلى الآخر حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة صاحبه ، فكان المترجم له تارة يذهب إلى داره وطورا يزوره هو ويقع بينهما من لطيف المحاورة ما يتعجب منه وهو الذى نفح الشاعر بهذه النفحات العظيمة من الغزل الفائق .

ولم يزل المترجم به على حالته ورقته ولطافته مع ما كان عليه من كرم النفس ، والعفة والنزاهة والولع بمعالى الأمور والتكسب وكثرة الانفاق ، وسكنى الدور الواسعة ، وكان له صديق يسمى أحمد العطار بباب الفتوح توفى ، فتزوج شاعرنا امرأته وهى نصف ، وأقام معها نحو ثلاثين سنة ، ولها ولد صغير من زوجها المتوفى فتبناه ورباه ورفهه وأشفق عليه إشفاق الوالد بولده ، ولما ترعرع زوجه وأقام له مهرجانا

لها ، وبعد سنة من زواجه مرض أشهراً أنفق فيها كثيراً من المال عليه ، ثم قضى الغلام نحبه لجزع عليه جزعا شديدا وأقام له مأتما عظيما ، واختارت أمه دفنه بجامع الكردي بالحسينية ، ورتبت له رواتب وقراء ، واتخذت مسكنا ملاصقا لقبره أقامت به نحو الثلاثين سنة ، وشاعرنا طوع أمرها فى كل ما طلبته ، وكان كل ما وصل إليه من مال أو كسب ينفقه عليها وعلى أقاربها وخدمها .

ومرض بحصر البول مع الحرقة والتألم وطال عليه حتى لزم الفراش أياما ، ثم توفى فى يوم السبت ثانى الحجة سنة ١٢٣٠ بمنزله الذى استأجره بدرب قرمز ، وصلى عليه فى الأزهر فى مشهد حافل ، ودفن عند ابنه المذكور بجامع الكردى .

وقد اهتم صديقه الحميم الشيخ حسن العطار بجمع ديوان الخشاب فى حياته سنة ١٢٢٧ هـ لاعجابه الشديد برقته وبلاغته وسمو خياله ، أى قبل موته بثلاث سنين ، ويؤيد ذلك التاريخ الذى وضعه ناسخ الديوان محمد صالح الفضالى الواقعى المصرى إذ انتهى من نسخه فى يوم الأحد ١١ شوال ١٢٢٧ ؛ وقد عاش المترجم بعد جمع ديوانه ثلاث سنين ، ولا يبعد أنه نظم فيها شيئا ليس بالقليل ؛ ولأنه لم يترك عقبا امتدت يد الشتات إلى نظمه الأخير .

ونحن لا نعرف بالضبط التاريخ الذى بدأ فيه بمعالجة القريض وأقدم تاريخ فى ديوانه سنة ١٢٠١ يؤرخ به ميلاد ابن أبى الأنوار السادات ، ومن ذلك نعلم أنه مكث يقرض الشعر أكثر من ثلاثين سنة .

وقد طرق الشاعر عدة أنواع من الشعر وهى الغزل والخمريات والمدح والرثاء والتهانى والوصف والموشحات والأدوار . وإن ألقينا نظرة عامة فى شعره وجدناه صادق الوصف منسجم السياق رشيق الأسلوب ، يحسن اختيار الألفاظ وموسيقى الأوزان ، خفيف الروح فخم التراكيب ، مسلسل المعانى متصلها ، ولم نر فى جميع ديوانه شيئا من الهجو ، وهذا مما يدل على سمو أخلاقه .

ولغزله المكانة الأولى ، ولا سيما ما قاله فى صديقه الفرنسى الذى سبق الكلام عنه ، فإنه يتأجج بعنيف العواطف والصراحة فى القول ورقة التعبير ورشاقة الوصف ، ومن أرق وصفه فيه :

أدرها على زهر الكواكب والزهر ... وإشراق ضوء البدر فى صفحة النهر

وهات على نغم المثانى فعاطنى ··· على خــدك الخمر حمراء كالجمر
وموه لجين الكأس من ذهب الطلا ··· وخضب بنانى من سنا الراح بالتبر

ومن درر نظمه خمريته :

ادر السلاف على صدى الألحان ··· ودع العذول بجهله يلحانى
واستجل بكر الراح فى ظل الربى ··· بين الرياض تزف والعيدان
شمس لها من فوق خد مديرها ··· شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لألائها ··· فى الخد نار فؤادها الولهان
نار لها فى وجنتيه وكفه ··· لهب به أعشو إلى النيران
من كف معتدل القوام كأنه ··· قمر يلوح على غصين البان
نشوان من سكر الشباب يهزه ··· من خمر فيه وراحه سكران
ومهفهف ماء الحياء بوجهه ··· يزرى بهى شقائق النعمان

إلى أن قال :

ليث العرين له تلفت جؤذر ··· يفــتر عن در على مرجان
متلالىء تحت الشعور جبينه ··· كحسامه فى غيهب الميـــدان
عربى لفظ أعجمى المنتمى ··· هنـــدى لحظ صائل بيمان
غصب النجوم فصاغهن أسنة ··· وبفيه نظمها عقود جمــان

والقصيدة طويلة والجزء الغزلى فيها يرجع إلى صديقه الفرنسى ، ومن ألطف قوله قصيدته التى يمدح بها السادات :

وصلتك واضحة الجبين المسفر ··· من بعد طول تمنع وتستر
قامت تخالست ازديارك قومها ··· وتربصت سحراً هجوع السمر
وانثت ترنح كالقضيب أماله ··· نفس الصبا وتجر فضل المئزر
هيفاء يخجل لحظها وقوامها ··· بيض الصفاح وكل لدن أسمر
ما أنس لا أنسى ليالى وصلها ··· بين الرياض وحسن نغم المزهر

إلى أن قال :

من سادة ورثوا النبى وجاهدوا ··· فى دينه حق الجهاد الأكبر

من خير بيت من ذؤابة هاشم من معشر أكرم به من معشر

والقصيدة طويلة .

ومن أروع شعره قصيدة فقد مسودتها وراجعه فيها الشيخ حسن العطار فذكر له منها أحد عشر بيتاً من وسطها ونسي الشاعر مطلعها وآخرها :

ولرب ليل قد أبيت بجنحه	أطوى هضاب فدافد ووهاد
بأغر أجرد ضامر لكنه	جلد العزائم عند كل جلاد
متعوداً وطء الأسنة فى الوغى	متجشماً فى الروع هول طراد
ظن السيوف جداولا وعوامل	المران أغصان النقا المياد

إلى أن قال :

متقلداً عوض السيوف عزائمى	متسربلا بدل الدروع فؤادى
حتى بلغت أخا السماحة والندى	وابن السراة السادة الأجواد

وكان خفيف الروح طلق اللسان ، حسن المحاضرة ، حلو المفاكهة ، حاضر البديهة . فكانت هذه الخلال مدعاة لأن يتجاذبه أعيان عصره ، ويتنافسوا فى صحبته طلباً لحسن حديثه ولطف منادرته ، وقد بعثته رقة الحال إلى التكسب بالشهادة فى المحكمة الكبرى بالقاهرة . ولما أقام الفرنسيون ديواناً للقضايا ليرفع إليه ما يقع من الأقضية بين المسلمين اتخذوه لتدوين ما يجرى فيه من الحوادث وتلخيصها ونظمها ، ونشرها فى صحيفة (التنبيه) التى سلفت الإشارة إليها ، وأجروا عليه وظيفة شهرية حسنة . على أن ذلك لم يصرفه عن مهنة التكسب بالشهادة فى المحكمة .

والخشاب بالإضافة إلى عصره ، يعد من أجل الأدباء ، وأبلغ الشعراء ، وأبرع الكتاب . وشعره ، فى الجملة ، يمتاز بالسهولة والرصانة وقلة التكلف ، وخاصة ما يتعلق منه بألوان البديع .

الشيخ حسن العطار

هو العالم الكاتب الشاعر الشيخ حسن العطار . انحدر من أسرة مغربية ، لكنه ولد فى القاهرة . وكان أبوه عطاراً . فلما رأى هواه إلى العلم أدخله الأزهر

فأخذ عن أئمة شيوخه حتى برع . وتعلم مبادىء الهيئة وغيرها ، وأكب على كتب الأدب فأصاب منها حظا عظيما . وأجاد الشعر والنثر كليهما ، ولما دخل الفرنسيون مصر اتصل برجال منهم فأصاب منهم طرفا من العلوم المصرية وعلمهم العربية . ثم ساح فى كثير من الأقاليم الإسلامية ، وعاد إلى مصر فتولى تحرير (الوقائع المصرية) ثم انتهت اليه مشيخة الجامع الأزهر . وقد توفى سنة ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م

ولم يجمع شعره فى ديوان خاص . ولكن نثره جمع فى كتاب (إنشاء العطار) . وله منظومة فى النحو شرحها تلميذه حسن قويدر ، وبعض حواش فى النحو والبلاغة .

السيد الدرويش

هو السيد على افندى الدرويش بن حسن بن إبراهيم ، نشأ بالقاهرة ، وأولع بالآداب ، فأقبل على ما تهيأ له من كتبها مطالعة وحفظا واستظهاراً ، وقرض الشعر وأجال اليراع فى فنون النثر ، ونظم كثيراً من الأصوات (أدوار الغناء) ، وقد بلغ بأدبه المنزلة فى أمراء عصره ووجوهه ، وعرف بشاعر عباس الأول ، ولم يكن يتكسب بالشعر مكتفيا بماله وعقاره ، وقد توفى سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م

وكان رحمه الله - سواء فى شعره أو فى نثره - شديد الولع باصطياد المحسنات البديعية ، يحشرها فى الكلام حشرا ، ويقسرها على النظم قسرا ، وكان من أمهر نظام التواريخ الشعرية الحسابية ، وله ديوان طبع فى مصر جمع بين شعره وأغانيه ونثره .

صفوت الساعاتى

هو محمود صفوت افندى المعروف بالساعاتى ابن مصطفى أغا . ولد بالقاهرة وتعلم فيها ، ثم خرج إلى الحج فاتصل بشريف مكة ، فآثره الشريف وادناه مدة ، وشاهد هو معه بعض ملاحم وصفها فى شعره . ثم عاد فاستخدم فى معية الخديو ثم فى مجلس أحكام الجيزة والقليوبية . واشتهر بالساعاتى لحذقه فى فن الساعات ، وإن كان لم يحترفه . وكان رحمه الله ، بالقياس إلى عصره ، أديبا شاعراً ناثراً ، حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، وله ديوان مطبوع . وقد توفى سنة ١٢٩٨ - ١٨٨٠ م

السيد على أبو النصر

هو الشريف السيد على أبو النصر . أصله من منفلوط من أعمال مديرية أسيوط . وقد انحدر إلى القاهرة يافعا ، وطلب العلم فى الأزهر . وكان له ولع بالأدب واستعداد كبير له ، فقرض الشعر غلاما ونظم الأزجال . ولم يتراخ به الزمن حتى طارت فيهما شهرته . واتصل ببيت الإمارة من عهد محمد على باشا ودام اتصاله إلى عهد توفيق باشا . وأزجى لأمرائه سوابغ المدائح فأجزلوا له الصلات ، وخاصة أيام إسماعيل .

وقد أوفده محمد على الكبير إلى الآستانة لبعض الشأن فى خلافة السلطان عبد المجيد ، ثم استصحبه إليها إسماعيل باشا فى خلافة السلطان عبد العزيز . وله ديوان مطبوع . وشعره فى الجملة ، لا يرتق إلى حظ كبير من الجودة ، ولا يتدلى إلى غاية الإسفاف ، وكان رحمه الله ، ولوعا بالتاريخ الشعرى . وقد توفى عام ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م .

الشيخ على الليثى

هو العالم الأديب الكاتب الشاعر الشيخ على بن حسن بن على . ولد فى بولاق مصر . ومات أبوه وهو صغير فتحولت به أمه إلى جهة الإمام الليث . وطلب العلم فى الأزهر بضع سنين ، ثم شخص إلى طرابلس الغرب ، وهناك أخذ على الشيخ السنوسى والشيخ القوصى الكبير . ولما عاد اتصل بالبيت الخديوى . واشتهر فى أيام إسماعيل وتوفيق ، فكان شاعرهما ونديمهما . ورافق الخديو إسماعيل فى بعض أسفاره . وقد توفى فى عام ١٣١٣ هـ — اليوم الخامس ١٠ من فبراير سنة ١٨٩٦ م .

وكان رحمه الله ، جميل المحاضرة ، بديع المفاكهة والمنادرة ، وله فى هذا الباب من روائع الآثار ، ما لا يزال يتردد فى مجالس الأسمار . وقد قربه إسماعيل باشا وأكرم مثواه ، وأسنى له الجوائز ، وأجزل له العطايا ، وأضفى عليه لقب (شاعر الخديو) . ولما خلفه توفيق باشا أبقى عليه وأسبغ عليه عطفه ، فأخلص له الشيخ أيما إخلاص ، وخاصة فى إبان الثورة العرابية .

وله ديوان شعر لم يطبع ، عند صهره حضرة الأستاذ محمد سعودي افندي نسخة كاملة منه ، وقيل إن السبب في عدم طبعه يرجع إلى علم أهله وخاصته بأنه لمن من يقدم على ذلك . ولعله فعل ذلك تحرجا من نشر ما عسى أن يكون تورط فيه كشأن أكثر الشعراء من دعابة أو غلو في مديح أو ذم أو نحو ذلك . فقد كان في الرجل دين أو فيه تقية . وشعره في المنزلة الوسطى من منازل الشعر .

ومن شعره ما قاله في عقب الثورة العرابية . من قصيدة طويلة :

كل حال لضده يتحول	فالزم الصبر إذ عليه المعول(١)
يا فؤادي استرح فما الشأن إلا	ما به مظهر القضاء تنزل
رب ساع لحتفه وهو ممن	ظن بالسعي للعلا يتوصل(٢)
قدر غالب وسر الخفايا	فوق عقل الأريب مهما تكمل
غاية العقل حيرة وعقال	واللبيب الذكي من قد تأمل
كيف تنسى وحادثات الليالي	فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفسا وغالت نفيساً	وذوى مربع الحظوظ وأمحل(٣)
وإذا المرء كان بالوهم يبني	لخيال الظنون ما قد تمثل
ويح قوم سعوا لإدراك أمر	دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا	بأناس من نابه أو مغفل(٤)
ذاك يسعى على التقية خوفا	وسواه سعى لكيما يحمل(٥)
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء	كانت الغاية الجميلة أمثل

(١) عليه المعول : عليه المعتمد في الشدة .

(٢) الحتف : الهلاك .

(٣) أمحل : أجدب ، يريد أن حادثات الثورة أضاعت الأرواح والنفائس من مال ومتاع ، وأصبحت الحظوظ لا يرجى منها خير ولا أمل .

(٤) أصروا عليه : عزموا وثبتوا على عزمهم .

(٥) التقية : التقي ، وهو الخشية والحذر .

وقال يصف السفينة وهو عائد من برلين :

أصبح الوقت باسما بالسرور ... كابتسام الربيع وقت الزهور
أين ألقى ظريف طبع لطيفا ... كى ندير الحديث مثل الخمور
فوق ظهر السفين نحسن وصفاً ... حيث يجرى على صفاء البحور
وتراه يختال وهو معنى ... ويحه كم يجر ذيل الفخور[١]
ذيله يرسم المجرة عجباً ... بين موج يضيء مثل البدور[٢]

---

(١) المعنى : بضم الميم وفتح العين وتشديد النون المفتوحة : المتعب المكدود . وويحه : رحمة له ، والفخور بفتح الفاء : الكثير التفاخر .

(٢) المجرة : بفتح الميم وتشديد الراء المفتوحة : نجوم كثيرة لا يميزها البصر بل يراها كبقعة بيضاء .

عبدالله فكرى[1]

١٢٥٠ — ١٣٠٧ هـ : ١٨٣٤ — ١٨٩٠ م

هو شيخ شعراء مصر فى عهد إسماعيل ، وأشهر الكتاب والأدباء فى ذلك العهد ، وأحد أركان نهضة الأدب فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

كان أبوه محمد بليغ افندى ضابطا بالجيش المصرى وهو ابن الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر ، ولد سنة ١٢٥٠ وتوفى والده وهو فى سن الحادية عشرة فكفله بعض أقاربه ، فعلمه القرآن وبعث به إلى الأزهر فأكب على تعلم علومه مشتغلا أيضاً باللغة التركية ، واستخدم من أجلها مترجماً للعربية والتركية فى عدة مناصب آلت إلى نقله إلى حاشية سعيد ثم إسماعيل ، فعهد إليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك . ثم تقلب فى جملة مناصب آخرها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩ وبقى بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة ، واتهم فى الثورة فقبض عليه ثم اتضحت براءته فأطلق ورد إليه معاشه بعد أن استعطف الخديوى توفيقاً بقصيدة طويلة وتوفى سنة ١٣٠٧ .

وكان فكرى باشا كاتبا بليغا سلك فى كتابته طريقة كتاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى والخوارزمى : من التزام السجع القصير القليل التكلف للمحسنات البديعية فى أكثر رسائله الصادرة عن القصر والنظارات ، وبذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى « لو تقدم به الزمان لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان » . ويعد عبد الله فكرى من واضعى الاصطلاحات والألفاظ الديوانية المصرية الحديثة ، وبعضها مقتبس من اصطلاح دولة المماليك ، وله شعر وسط فى الجودة .

ويصف البارودى صديقه عبدالله فكرى فيقول:

أخى وصديق وابن ودى وصاحبى ... وموضع سرى حين يختلج الصدر
هو الصاحب المشكور فى الود سعيه ... وما خير ود ليس يلحقه شكر

---

(١) راجع شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد ، ٨٥ جـ ٢ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو ، ١٢٥ : ١ فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ، وشتى كتب تاريخ الأدب .

أمين على غيب الصديق إذا ونت ... عهـــود أناس أو تطرقها فتر
فلا جهره سر ولا سر صدره ... إذا امتحن الواشى ضمائره جهر
يدب على المعنى الخفى بفكرة ... سواء لديها السهل فى ذاك والوعر
له البلجة الغراء يسرى شعاعها ... إذا غاب أفق الفهم والتبس الأمر
تزاحم أفواج الكلام بصدره ... فلو غض من صوت لكان لها هدر
إذا اختمرت بالليل قمة رأسه ... تفجر من أطراف لمتها الفجر

وكان أدب البارودى مقصورا على ما يقول من شعر فيما يعرض له من أحداث ، وأما فكرى فكان أدبه كما يقول أحمد أمين : شائعا فى مناحى حياة الناس ، يكتب الخطابات الرسمية للخديوى إسماعيل ، والخطابات الخاصة لحرمه، ويكتب رسائله الإخوانية لجهرة كبيرة من أصدقائه فى كل مناسبة ، ويضع الكتب لتلاميذ المدارس الابتدائية ، ويؤلف فى موضوعات مختلفة ، وينقد العقلية الرجعية ، ويدعو إلى التقدم ، ويملأ المجالس فكاهات ظريفة ، تتناقل عنه وتملأ جو مصر بهجة ، فلا يجهل فضله خاص ولا عام .

وكان مؤدبا أدب الملوك ، عف اللسان ، ظريف المحضر ، نزيه اليد ، كريما ، سمحا ، وكان الشيخ محمد عبده كثيراً ما يترحم عليه عند ما يتمثل بقوله :

ولو شئت كانت لى زروع وأنعم ... ومال به الآمال أقتادها قسرا
ولكنها نفس فدتك أبية ... تعاف الدنايا أن تمر بها مرا

وقد وجه عناية كبرى لإصلاح الكتاتيب ، وكانت على شكل بدائى من مخلفات القرون الوسطى ، لا يعنى فيها بنظافة ولا صحة ولا ثقافة ، بل كتل من الأطفال يمتزج فيها الصحيح بالمريض ، يجلسون على حصير بال ، ويأكلون بأيديهم القذرة من وعاء واحد ؛ وعليهم رجل اسمه « سيدنا » لا ثقافة له إلا أنه يحفظ القرآن ، فجد هو وصديقه على باشا مبارك فى إصلاح برامجها ، وأماكنها ومعلميها ، وأساليب الدراسة فيها ، فنقلاها بذلك خطوة جديدة ، واتجه إلى المدارس الابتدائية . فنهض بها نهضة صالحة فى نواحيها المختلفــة ، وله إذ كان ناظرا للمعارف خطبة قوية تبين منهجه فى إصلاح سياسة التعليم ، وقد خطبها فى مجلس النواب ، ونشرت فى الوقائع المصرية ، فى عدد ٢٨ مارس سنة ١٨٨٢ وهى تدل على مبلغ نشاطه فى إصلاح التعليم وتوسيعه ، سواء فى الكتاتيب أو فى المدارس ، ذلك إلى أنه كان اليد اليمنى لكل ناظر معارف ، يستشيره فى أعماله ويعتمد عليه فى رسم الخطط للتعليم ، وكان هو والشيخ محمد عبده أنفسهم عضوين عاملين فى مجلس التعليم الأعلى .

أما نثره فيصفه النقاد بأنه كان له أسلوبان ، أحدهما مرسل يكتب به في الشؤون العلمية والتقريرات العملية فتغلب فيه ملاحظة المعنى وتقل فيه الاسجاع والفواصل ومثاله ما كتبه من « جوتمبرج » إلى الوزير رياض باشا بما شهده في مؤتمر المستشرقين إذ يقول : « ... ثم أشير إلى فقمت وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس فأتممتها في الطريق وبيضتها في استكهلم فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهـــار وبدت لشمس سمائها أنوار

ومضيت فيها إلى آخرها وصفق الناس لكل من خطب وبالجملة لي لما أتممت الإنشاد ، وخاطبني أناس منهم باستحسانها في اليوم وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وسارني يطلب نسختها فأخذها في الحفلة وخطب بعد ذلك أناس منهم المسيو شفر وافد فرنسا وكانت هـــذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية . ثم قام الملك وودع الحاضرين وصافح البعض وصافحنا وقال حسنا . وانصرف وانصرفنا وانفضت الحفلة وارفضت الجمعية ... »

والأسلوب الآخر الذى يحتفل لتنميقه وتزويقه لا تفوته فيه سجعة واحدة على طريقة القاضى الفاضل والمقتدين به كما قال في تقريظ الوقائع المصرية حين أصلح أمرها بعد سابق اختلال اعتراها : « لاريب أن كل من عرف التمدن ، وشم عرف التفنن ، وأخذ بنصيب من الفهم والتفطن ، كان أحب شيء إليه ، وأوجب أمر لديه ، أن يكون مطلعا على وقائع مصره ، عارفاً بما تجدد بين بنى عصره ، من حوادث الزمان ، وعجائب عالم الإمكان ، وما هو صائر في الممالك المتمدنة ، ودائر بين الملوك المتمكنة ، وما هو جار بين الدول المتفقة ، والملل المفترقة ، من عهود تجـــدد ، وشروط تؤكد ، وآثار تغير ، وصعاب تيسر ، وما بينهم من نزاع ومقاتلة ، وخداع ومخاتلة ، وسكون وهدنة ، وحركة وفتنة ، وما حدث في أحوال التجارة ، وأمور السياسة والإدارة ، وما أسدته عقول النبلاء من بدائعها ، وما ظهر من روائع الصنائع ، وعوارف المعارف وطرائف اللطائف ، فتتسع دائرة اطلاعه ويمتد إلى المعالى طويل باعه » .

وقد جرى على هذا الأسلوب في المقامات والألغاز والأوصاف والرسائل .

وأما شعره فقد كان يلتزم فيه فن التاريخ الشعرى وله من ذلك شعر كثير ، وكان يلتزم كثيرا بعض ألوان من المحسنات .

ومن شعره ما كتبه إلى أحمد فارس الشدياق رداً على قصيدة له :

تفديك نفس شج عليل آسى عن الدواء له وحار الآسى[١]
أضناه طول أساه حتى إنه يحكي لفرط ضناه ذاوي الآس[٢]
هزته سارية النسيم ، وقد جرت بشذا فروق أريجة الأنفاس[٣]
فكأن في طي الشمال ، إذ انثنى من نشرها طرباً ، شمول الكاس[٤]
وكأنها حملت إلى رسالة غراء جاءت من أغر مواسى[٥]
كمليحة عذراء وافت صبها من بعد طول تعذر وشماس[٦]
يفتر مبسمها بحسن حديثها عن سحر فاتن جفنها النعاس[٧]
تدنو فيطمع عاشقها أنسها ويشير عن دلالها بإياس[٨]
أو روضة فيحاء حياها الحيا من صوب محلول العرى رجاس[٩]

وكتب إلى توفيق باشا يستعطفه ويستمنحه العفو :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر إذا وافيت ، واجتنب الكبرا

---

(١) الشجى : المهموم ، الحزين . والآسى : كذلك . عز الشيء : ندر وصعب الحصول عليه . الآسى : الطبيب .

(٢) أضناه : أسقمه وأهزله . أساه : حزنه . ذاوي : ذابل . الآس : نوع من الزهر .

(٣) الشذا : قوة طيب الرائحة . فروق بفتح الفاء : من أسماء القسطنطينية . وأريجة : طيبة الريح .

(٤) الشمال : يريد بها ريح الشمال . والشمول بفتح الشين : من أسماء الخمر .

(٥) الغراء : الحسناء . والأغر : السيد الشريف . والمواسى : المساعد المعاون .

(٦) صبها : عاشقها . والتعذر : التمنع . والشماس بكسر الشين . النفور والإباء .

(٧) يفتر : ينكشف . والمبسم : الفم . والنعاس : الشديد الفتور .

(٨) الإياس : اليأس . أي ييأس من أن تواصلهم .

(٩) الحيا : المطر . ويريد بمحلول العرى : المطر الغزير الذي لا يحجبه شيء ، والرجاس : الشديد الصوت .

لدى باب سمح الراحتين مؤمل ... صفوح عن الزلات يلتمس العذرا(١)

تنوء الجبال الراسيات بحلمه ... إذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا(٢)

يراقب رحمن السموات قلبه ... فيرحم من فى الأرض رفقا بهم طرا(٣)

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ... ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا(٤)

لئن كان أقوام على تقولوا ... بأمر فقد جاءوا بما زوروا نكرا

وإن سعاة السوء أنزل فيهم ... علينا إله العرش فى ذكره ذكرا(٥)

وعلمنا أن نستبين مقالهم ... ونأخذ منهم فى مساعيهم الحذرا(٦)

حلفت بما بين الحطيم وزمزم ... وبالباب والميزاب والكعبة الغرا(٧)

وبالزائريها يرتجون مليكهم ... لما فرطوا فى العمد والخطإ الغفرا(٨)

وبالصلوات الخمس يرجى ثوابها ... وبالصوم يوليه الحفى به شهرا(٩)

---

(١) السمح : الكريم . والراحتان : مثنى الراحة ، وهى باطن الكف .

(٢) يقال : ناء به الحمل ينوء به : أى أثقله وأتعبه . يقول : إذا شط الجاهل عن عقله عند الغيظ من شدة القهر فإن حلم العاقل فى مثل هذه المواقف تعجز الجبال الراسيات عن احتماله .

(٣) يشير إلى الحديث الشريف : الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . طرا : جميعا .

(٤) آلاء : النعم ، والعمر هنا ظرف زمان ، والمعنى مدى العمر .

(٥) الذكر : القرآن الكريم . يقول : إن الذين يمشون بالسوء بين الناس ذكرهم الله فى كتابه العزيز ، يشير إلى قوله تعالى : « هماز مشاء بنميم » .

(٦) الحذر بكسر الحاء وسكون الذال : الحذر بفتحها . يشير إلى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

(٧) الحطيم : موضع من الحرم المكى . والميزاب : مسيل المطر . والمراد ميزاب الكعبة (٨) مليكهم : ربهم . والغفر : الغفران .

(٩) حفى بالشىء من باب علم واحتفى به : أكرمه ، وأظهر الفرح به .

لما كان لي في الشر باع ولا يد ... ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرا (١)
ولكن محتوم المقادير قد جرى ... بما الله في أم الكتاب له أجرى (٢)
وفي علم مولاي الكريم خلائق ... قديما وحسبي علمه شاهدا برا (٣)
فعفواً أبا العباس لازلت قادراً ... على الأمر إن العفو من قادر أحرى (٤)
ملكت فأسجح ، وامنح العفو تبتغي ... زكاة لما أولاك ربك أو شكرا (٥)
أيجمل في دين المروءة أنني ... أكابد في أيامك البؤس والعسرا ؟
ولي فيك آمال ضمينى بنجحها ... وفاؤك ، لا أرجو سواك لها ذخرا (٦)
فمن فقد ألفيت موضع منة ... وربك لا يبغي لذي منة أجرا (٧)

وقال يتغزل :

كتبت ولولا دمع عيني سائل ... تلظى جوابي من تلهب أنفاسي (٨)
وعندي من الأشواق مالم يبح به ... لسان يراع في مسامع قرطاس (٩)
ولي من تباريح الهوى وشجونه ... أحاديث تلهي الشرب عن لذة الكاس (١٠)
ولو كنت من دهري أنال مآربي ... لسرت لكم سعيا على العين والراس

---

(١) الباع : قدر مد اليدين ، والمراد أنه لم يحدث الشر ولم يدخل فيه مطلقا .
(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ .
(٣) الخلائق : جمع خليقة ، وهي السجية والطبيعة . بر بفتح الباء : رحيما شفيقا .
(٤) أحرى : أحق وأجدر
(٥) ملكت فأسجح : مثل مضروب . والاسجاح : أحسن العفو .
(٦) النجح بضم النون : النجاح . والذخر بضم الذال والذخيرة : مايستبقى لوقت الحاجة
(٧) فمن : فأحسن . المنة بكسر الميم : الإحسان .
(٨) تلظى : التهب واحترق . ويريد بالجواب الصحيفة التي ضمنها خطابه .
(٩) اليراع : يريد القلم . والقرطاس الصحيفة التي يكتب فيها .
(١٠) تباريح الهوى : حرقته . والشجون جمع شجن بفتح الشين والجيم ، وهو الهم والحزن . والشرب بفتح الشين الشاربون .

وكتب إلى السيد عبد الهادى نجا الأبيارى يعتذر عن عدم إجابة دعوة لم تصل اليه :

يامن بديع حلاه   تزرى البديع وتنسى (١)
وافت عقيلة نظم   تتلو فصاحة قس (٢)
كالبدر لاح سناه   من بعد مغرب شمس
فغادرتنى سريعا   نشوان من غير كأس
فمن بالعفو إنى   منه على غير يأس
وإن عتبت فحق   وما أبرىء نفسى

وله يشكر توفيق على إجابة ملتمس له :

بعلى مجدك تفخر العلياء   وبجود كفك تقتدى الأنواء (٣)
وإليك ينتسب الكمال وينتهى   كرم الخلال وينتمى الكرماء (٤)
وعليك من نور الإله جلالة   تعنو لديك لعزها العظماء (٥)
ومحبة غدت القلوب بأسرها   أسرى لها وانقادت الأهواء (٦)
فلتفخر الدنيا بمجدك والعلا   والملك والوزراء والكبراء
مولاى دعوة عبد رق مخلص   ناء يقربه اليـك ولاء (٧)
أوليتنى من جود كفك نعمة   غراء كانت قبلها آلاء (٨)

---

(١) البديع فى الشطر الثانى هو بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات المشهورة والأسلوب المسجع ، من كتاب القرن الرابع الهجرى .

(٢) قس بن ساعدة الأيادى الخطيب الجاهلى .

(٣) العلى : العالى . والعلياء : السماء والأنواء . جمع نوء بفتح النون وسكون الواو ، وهو المطر .

(٤) تعنو : تذل وتخضع

(٥) انتهى الكرم اليه : اتصل به . وانتمى : انتسب .

(٦) بأسرها : أى جميعها . والأهواء : الميول .

(٧) ناء : بعيد المكان .

(٨) النعمة الغراء : الحسنة . وكانت ـ هنا ـ تامة . والآلاء ، النعم ، أى سلفت إلى نعم منك قبل هذه النعمة .

فلأشكرن نداك ما صحبت يدى قلماً ، وصاحب منطقى إصغاء (١)

ومن نثره هذه المقامة فى حسن الوفاء :

حدثنى صاحب مبارك ، ليس فى فضله يشارك ، قال : كان ببعض الأمصار فيما مضى من الأعصار ، رجل من التجار ، ذو شرف ونجار ، قد رزق سعة الغنى وجنى ثمرات المنى ، وكان حسن المعاملة ، كثير المجاملة ، سليم الفؤاد حلو الوداد ، فطار صيته فى الأقطار ، وسار فى جميع الأمصار ، فانفسح نطاق تجارته ، واتسعت دائرة إدارته ، وكثرت أحبابه وأصحابه ، وغصت بإخوانه وخلانه رحابه ، ورزق بولد سرته سيرته ، وحسنت علانيته وسريرته ، فكان له رفيقا وعلى أهله شفيقاً .

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

وعاش الرجل مدة على هذه الحال ، رخى العيش ناعم البال ، قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال ، حتى قارب مدى العمر حده ، وبلغ ابنه المذكور أشده ، فلما أظله يومه الموعود ، وأحس بانقضاء أمده المحدود ، دعا بابنه فى خلوة من الأغيار ، وأوصاه بوصايا البررة الأخيار ، وقال فيما أودعه سمعه ، وأراد به نفعه : يابنى إنى أرى الشمس آذنت بالأفول ، وقد عزم الغريب على القفول ، واليوم قد أزف الرحيل ، والبقاء فى هذه الدار مستحيل :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

وأنا مكاشفك بخبيئة فى الضمير ، ومخبرك بأمر خطير ، ولا ينبئك مثل خبير : إن عندى كنزاً أدلك عليه ، لترجع بعدى عند الحاجة إليه ، فيكون لك ظهراً فى شدائد الأيام ، وظهيرا فى مكايد الأنام ، فافتح لما أقول أقفال لبك ، واحفظه كسواد عينيك وسويداء قلبك ، وما أردت كنز مال مدفون ، ولا نفيس جوهر مكنون ، فإن مالى لديك ، وتجارتى بين يديك ، والعقار كما علمت ، واليسار مثل ما فهمت ، والرزق متيسر وأمر التجارة غير متعسر ، ولكن قصدت ما هو أعلى وأغلى ، وأجدر بالرعاية والعناية وأولى ، وما هو إلا صاحب عرفته قديما ،

---

(١) الندى : الجود والعطاء . والإصغاء : الاستماع ، والمعنى أنه سيظل شاكرا ما بقى قادراً على الكتابة ، وما بقى الممدوح مستمعا له .

وعكفت على وده مستديما ، قد هذبته الليالى بمرها ، وجرعته كؤوس حلوها ومرها ، وكنت جربته فى خيرها وشرها ، وبلوته فى نفعها وضرها ، وكررت اختباره مرارا ، فزاده اختبارى اختيارا ، وطول تجربتى منزلة عندى ومقدارا ، وكان لى كما قيل :

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

وأنت ترى كثرة الأصحاب حولنا ، وإكثارهم من الزيارة لنا ، ولكن كل ألف لايعد بواحد :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وعش بذاك الواحد

وهذا الرجل الذى ذكرت لايتردد كما يترددون ، ولا يبدى من ظاهر الحال والتجميل بالمقام مثل مايبدون ، وأنا أزوره المرة والمرتين فى الأسبوع ، والود فيما بيننا غير مقطوع ولا ممنوع ، فإنما الحب فى الصدور لافى الثغور ، وفى شغاف الجنان ، لافى أطراف اللسان :

وليس أخى من ودنى بلسانه ولكن أخى من ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى إذا كنت معدما ومالى له إن أعوزته النوائب

فهذا هو الكنز الذى قصدت ، والحرز الذى أردت ، فاشدد على صحبته العرى ، ولا تنبذ بمودته فى العرا ، وأتبع هذا القول بنصائح ارتضاها ، وأمور أمضاها ، وكأنها حاجة فى نفس يعقوب قضاها.

وله مقامة أخرى أسماها «المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية» ، ومقامة أخرى عنوانها «العمال والبطال» فراجعها فى كتب «الآثار الفكرية» .

وتجد آثاره الشعرية والنثرية فى كتاب «الآثار الفكرية» وكتاب «الوسيلة الأدبية» وفى ثنايا كتاب «إرشاد الالبا إلى محاسن أوربا» .

ومن نثره كذلك ما كتبه إلى إمام مسقط من طرف الحضرة الخديوية :

ماروضة سحبت عليها السحائب ذيول مطارفها ، وخلعت عليها من خلع الربيع محاسن طرائفها ، فظلت تثنى عليها أدواحها بما استودعته أرواح النسيم ، حين

سرت بليلة الأذيال عاطرة الشميم ، بأحسن ولا أبهى ، ولا ألطف ولا أشهى ، من تحية بهية تعلت لطفها نسمات الشمائل(١) ، ومودة سنية استفادت من حسن تلك الشمائل ، وتسليمات زهية يتلألأ فى أرجاء المودة سناها ، ويتفيأ(٢) فى أنحاء الأفئدة ظلال معناها ، تقدم وتبدى ، وتتحف وتهدى ، إلى حضرة ذروة المجد الشامخ ، وتاج هامة السعد والشرف الباذخ ، حسنة الدنيا ، وحلية المجد والعليا ، بدر المفاخر الذى أضاءت به نواحيها ، ومنار المآثر الذى اهتدى به ساريها ، رب الهمم العوالى ، وسليل الأكارم الأعالى ، وبهجة الأيام والليالى ، وزينة المحامد والمعالى ، حرس الله مهجته ؛ وأدام بهجته ؛ وحمى حماه ؛ ورعى رعاياه ؛ ولا زالت ثغور الآمال بوجوده بواسم ؛ ورياح الإقبال بوفوده نواسم(٣) .

وبعد فقد وصل إلى كتابكم الكريم ، وتلقيته بما ينبغى له من التكريم ، فلأ العين قرة ، والقلب مسرة ، والنفس ارتياحا ، والصدر انشراحا ، واجتليت منه روضة بلاغة أزهرت نجومها(٤) ، وسماء فصاحة أسفرت نجومها ، واغتنمت من براعات عباراته الفائقة مزيد المسرات ، بما ابتديتموه من حسن الميل إلى وبديع الالتفات ، وشكرت المولى العظيم ، على صحة ذلك المزاج الكريم ، وهذا الحب فى صحة وعافية ، ونعمة من الله وافية ، فنسأله ونبتهل إليه سبحانه ، أن يديم علينا وعليكم إحسانه ، آمين .

ومما كتبه صورة فرمان بتنصيب محافظ لمصوع عام ١٢٨٢ هـ

صدر هذا الفرمان المطاع ؛ الواجب له القبول والاتباع ؛ خطابا إلى الحكام والعلماء والقضاة والأعيان ، والوجوه ، والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالى المتوطنين فى محافظة مصوع بجهات السودان ، ليكن معلوماً لديكم . بوصول هذا المنشور إليكم ، أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيب فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناه فيه من الدراية والاستعداد ، والسلوك فى طرق الرشاد ، وبذل الهمة فى أمور

---

(١) الشمائل : جمع شمال بالفتح ريح تهب من جهة خاصة .
(٢) تفيأت الظلال : تقلبت .
(٣) نسمت الريح : تحركت وهبت .
(٤) جمع نجم : وهو مالا ساق له من النبات .

المصلحة ومزيد الاجتهاد ، فامتثلوا أوامره التى تصدر فى صالح المصلحة واجتنبوا نواهيه ، واجتهدوا فيما يعود به عليكم مزيد العمارية ، لتنالوا حسن الرفاهية ، واعملوا بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » لتفوزوا بزيادة التفاتنا إليكم ورضانا عنكم . وأنت أيها المحافظ قد علمت ما لدينا من الشغف باتساع دائرة المدنية ، وحصول الخير لجميع أهل هذه الديار الوطنية ، والميل إلى دوام راحة العباد ، وتأمين السبل وتمدين البلاد . فعليك برعاية ما يلزم لذلك ، واسلك فى إدارة أشغال هذه المحافظة أحسن المسالك ، ودم على العدل والإنصاف ، واحذر من الظلم والإجحاف ، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام لأمته : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » . ولتكن مهتما بتحصيل حقوق المصلحة فى أوقاتها ، ورؤية جميع الأشغال على أحسن حالاتها ، ليدوم حسن أنظارنا عليك ، وتفوز بحسن التفاتنا إليك ، اعلم ذلك واعمل به ، واحذر من مخالفة موجبه .

وكتب إلى بعض أصدقائه :

الشوق إلى لقياكم ، واجتلاء نور محياكم ، تضعف عن نقله حمائم الرسائل ، ولا يحتاج فى إثباته للحجج والدلائل ، فالله يطوى شقة البين ، ويقر بكم العين ، ويمتعنى ببقائكم وطيب لقائكم ، وقد ورد خطابكم الكريم ، فسر أنفسنا تعرفه وتألفه ، وأقر أعيننا لا تزال ترقبه وتتشوفه ، وقد كان مر بخاطرى وحضر بفكرى أن أسابق سيدى ومولاى برسالة أشكو فيها لواعج البعاد ، وأقضى بها بعض الفروض الواجبة من حقوق الوداد ، ولكن أبى الله إلا أن يكون سيدى هو السابق لتلك الفضيلة ، والبادىء بهذه المكرمة الجميلة ، وأن أكون المقصر فى جنب تطوله ، والمفرط فى جانب تفضله ، على أنى لم أكن مقصراً فى دعاء يصحبه الحب ويرافقه الاخلاص ، وثناء على محاسن تلك الشمائل أوجبه مزيد الاختصاص ، وسؤال عن ذلك الخاطر الزاهر ، أستقبل به كل وارد وأشيع كل صادر ، والأمل اتصال ما يطمئن به الفؤاد ، من رسائل الوداد ، حتى ينقضى عهد أمد البعاد ، ذلك غاية المراد .

وكتب إلى الأستاذ على الشيخ الليثى سنة ١٢٨٧ هـ

السلام على سيدى الأستاذ أسعد الله شهوره وأيامه . وتقبل فى شهر الصوم

الشريف صيامه وقيامه ، وأحياه لكثير من أمثاله وأدامه ، ممتعا من الله تعالى بكل ما رامه .

وبعد فقد جاءنى كتابه الآن فأقر عينا تتشوف إليه ، وسر نفسا ترفرف عليه ، وجلا على من بديع البيان ، ما أنسانى بديع الزمان ، ومن معانيه الحسان ، ما أعاد إحسان حسان ، فلا عدمت يامولاى أخا وفيا ، وخلا حفيا ، وصديقا صفيا . وإن عندى من الشوق إليه ما يقصر لسانى عن صفته ، وحسبى استنارة ضميره الكريم فى معرفته . فليترجم عنه إن شاء الله بنفسه لنفسه ، فليس لدى براعة يراعته ولا جودة نفسه ، وعلمت ما عزم عليه سيدى من إحياء شهر رمضان ، بتلاوة القرآن والدعاء للخلان والإخوان ، فالله يوفقه ويديم توفيقه ، ويجعل التقوى سبيله والقبول رفيقه ، وينفعنى بأسرار دعواته ، وآثار توجهاته ، فى خلواته وجلواته وأيم الله لقد نبه منى الكتاب قلبا غافلا ، واطلع عليه من نجم الانابة ماقد كان آفلا ، والله سبحانه المرجو أن يوفق ويقبل ، وأن يشيع بالعفو كل شهر مضى ويهل بالهدى كل شهر أقبل ، وأما ما أشار سيدى إليه فى خطابه الشريف ، من طلبى ماعساه يلزم داعيه من أمور الريف ، فأنا لا يلزمنى الآن سوى أن يمدنى ببركات دعواته الفاخرة ، ولا يقتصر فى الدعاء على هذه الدنيا الحاضرة ، بل يجمع بين الدنيا والآخرة ، فإنما يطلب من كريم لا يستنفد الطمع مالديه ، ولا يرد عبده المنيب إذا رفع نحو بابه يديه ، فإن كان لابد من إعانة لأخيك فهذه سبيلها ، والله هادى كل نفس ودليلها ، وسلام لك من سيد على القدر ، مبارك الطلعة ، وماجد محمود الطبع سامى الرفعة .

* * *

حالة الشعر فى ذلك العصر

— ١ —

كان الشعر فى ابتداء هذا العصر على ما كان عليه فى العصر السابق ، بادى الضعف هزيلا ، ركيكا فى عباراته ، سقيما فى أخيلته ، عتيقا فى معانيه ، وذلك لأن النهضة لم تكن فى أول أمرها نهضة شعرية ، وإنما كانت نهضة علمية ثقافية . فما حتاج الشعر إلى زمن حتى يتأثر بعوامل النهوض ، وتبدو عليه مظاهر التقدم ويخلص من تراث الماضى السقيم . على أن فى بعض شعر هذا العصر ماهو خير من العصر الذى سبقه . فترى عليه علامات الصحة ، وتلوح عليه أمارات اليقظة ، وتشم منه روائح الفن ، ولاسيما إذا وصف الشاعر ما يلائم قوميته ، أو مدح ما يصادق عاطفته وشعوره ، أو رثى من تربطه به مودة وأخوة . فيكون الشعر حينذاك على حظ من الاصابة ، وكرم المطلب ، وشرف اللفظ . على أن أغراض الشعر ظلت على ما كانت عليه فى العصر السابق . دائرة بين المديح والرثاء والاهتمام بالتضمين والتجنيس ، والمحسنات اللفظية ، والتكلف الغث الذى يحتاج إلى كد فى الفكر ، وكدح فى القريحة . وشاع القول فى نوع من أنواع البديع اخترع فى العصر الماضى ، وهو التاريخ . فشا فيه القول حتى لا نرى قصيدة لم تختم به . ولعل لرغبة الأمراء فى تسجيل أعمالهم وضبطها بسنى حدوثها أثراً فى إكثار الشعراء من ذلك .

والتاريخ هو أن يأتى الشاعر أو المتكلم بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التى يريدها الشاعر من التاريخ الهجرى . ولابد أن تتقدم عليه لفظة أرخ ، أو أرخوا ، أو واحدة مما يشتق من التاريخ ، من غير فصل بينه وبين كلمات التاريخ ، ومن أمثلة التاريخ ما كتب على قبر إبراهيم :

زينت للقدوم جنة عدن

وكان أشد شعراء هذا العهد كلفا بهذا النوع من البديع هو السيد الدرويش ، قال من أبيات فى مدح محمد على ومؤرخا لفتح عكا :

هذا الوزير لفضله ... ورق التهانى صدحت
والعز قال أرخوا ... أسوار عكا فتحت

أى سنة ١٢٤٧ هـ .

وخير منه فى الشعر السيد الخشاب ، والشيخ شهاب الدين ، وصالح مجدى بك ، وامتاز صالح مجدى بك بوطنياته حتى إن له منها ثلاث عشرة قصيدة . فيحق لنا أن نعده أسبق من فكر فى الأناشيد الوطنية بين شعراء العربية .

ويقول الشيخ حسن قويدر — وهو شعر قريب المعانى ، ليس فيه من الخيال جمال ، وهو وإن خلا من المحسنات البديعة ، إلا أنه سهل أشبه بالكلام المعتاد ، وبشعر البهاء زهير أشبه :

يا طالب النصح خذ منى محبرة   تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من بنات الفكر قد كسبت   ملاحة ، ولها فى الخد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة   طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغو ومن غلط   كل البلاء بهذا العضو مرصود
واحذر من الناس لا تركن إلى أحد   فالخل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت   فالشر طبع لهم والخير تقليد

ويقول رفاعة بك الطهطاوى فى وصف الجيش المصرى مشيداً بمفاخره :

تنظم جندنا نظما   عجيبا يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما   فمن يقوى يناضلنا
رجال ما لها عدد   كمال نظامها العدد
حلاها الدرع والزرد   سنان الرمح عاملنا
وهل لخيولنا شبه   كرائم ما بها شبه
إليها الكل منتبه   وهل تخفى أصائلنا
لنا فى الجيش فرسان   لهم عند اللقا شان
وفى الهيجاء عنوان   تهيم به صواهلنا
مدافعنا القضا فيها   وحكم الفتح فى فيها
وأهونها وجانيها   تجود به معاملنا
لنا فى المدن تحصين   وتنظيم وتحسين
وتأييد وتمكين   منيعات معاقلنا

ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش ، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرا صحيحاً لا مبالغة فيه ، ولا إغراق ، وإن قصيدته لتشبه أن تكون صورة يخيل للقارىء أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب ، تحف بها أعلام النصر والظفر ، وتخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام ، وتواجه الأخطار قوية الإيمان ، ثابتة الجنان مجهزة بالسلاح والمدافع ، تجود بها معاملنا ، تلك التى كانت قائمة فى هذا العصر ، ولو لم يشهد رفاعة تلك مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر لما جادت قريحته بهذا الشعر ، فالشاعر مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية ، والاجتماعية ، ومظاهر الحالة الفكرية والخلقية .

— ٢ —

وقد ظل الشعر فى بدء عصر النهضة الحديثة أيام محمد على ، وعباس الأول ، وسعيد ، هكذا متأثراً بالضعف القديم ، الذى عرفته فى آخر العصر التركى : من حيث جمود الشعراء على أغراض قليلة ، وتناولهم معانى تافهة مبتذلة ، فى أساليب ركيكة . فلما تولى اسماعيل ، كانت مصر قد خطت خطوة واسعة نحو الارتقاء ، وظهرت آثار الاصلاح ، وقوى الاتصال بأهل الغرب ، وانتشرت المطبوعات ، التى تحوى كنوز الأدب العربى ، وانفسحت ميادين القول أمام الشعراء ، فوصفوا مظاهر التقدم الحسى ، وأكثروا من الشعر المعبر عن العواطف والحوادث الاجتماعية ، وكان لهم فى المعانى مدد من المشاهدات ، ومما قرأوه فى دواوين الشعراء السابقين ، وارتقت أساليبهم بعض الارتقاء فلم تكثر فيها الزخارف اللفظية أو المعنوية .

وفى آخر عصر إسماعيل ، نشأت طبقة جديدة من الشعراء ، كانت أوفر حظا من الثقافة العلمية والأدبية ، وأعظم تأثرا بمظاهر النهضة ، التى شاعت فى ذلك العصر ، فوثب الشعر وثبة واسعة نحو الكمال ، وارتقت الأساليب ، بمحاكاة أساليب النابغين فى عصور العربية الزاهرة ، وهجرت المحسنات البديعية ، كما ارتقت المعانى بارتقاء المشاهدات ، وكثرة الاطلاع على الأدبين : العربى والأوربى ، وحدث تجديد فى موضوعات الشعر ، وهجر كثير من أغراض الشعر القديم ، كالمديح ، والفخر ، والهجاء ، وإذا كان الشعر قد تطور بعد ذلك ، فلقد كان ، وما برح ، تطوره بطيئا ، على خلاف النثر ، فإنه أسبق تطورا ، وأسرع فى سبيل الكمال عدوا ؛ لأن الشعر : كما يقولون من الكماليات التى لا تدعو إليها

ضرورة فى الأسباب الدائرة بين الناس ، والمتأدبون إذ يتكلفونه إنما يطلبون به تصوير ما يتعلج فى النفس من ألوان العواطف ، وما يترقرق لأذهانهم من فنون الأخيلة فى غزل أو تشبيب ، أو حرقة جوى أو فرقة حبيب ، أو فى تغير الأيام أو طوق مشيب ، وقد تستعار له العواطف له استعارة فى مدح أو هناء ، أو ذم أو رثاء ، أو غير ذلك . نعم إن الشعر قد يسلك فى بعض الأحايين غير هذا مما تدعو إليه حاجات الحياة ، بل مما تدعو إليه عظائم الأمور ، كتحميس الناس واستنفارهم لحرب ، وكتثبيت دعوة دولة قائمة ، وإظهار حجتها فى الملك والسلطان ، أو حربها والدعوة إلى الانتقاض عليها ، أو حفز الجمهرة للاشتراك فى نفع عام أو غير عام . إلا أن هذا القدر اليسير لايخرج الشعر عن أفقه ، ولا يعدل به عن وجهه ، فهو مايزال فى الجملة زخرفا لاتدعو إليه ضرورة الحياة . وعلى هذا كان مثله الأعلى فيما جادت به قرائح السابقين من أئمة البيان .

كما أن الثقافة العلمية قد سبقت فى مصر الثقافة الأدبية ، لما جلونا عليك من الأسباب ، وكانت نهضة النثر طوعا لهذا أسبق وأسرع من نهضة الشعر . حتى إذا شاعت الثقافة الغربية فى هذه البلاد ، وطالع كثير من الشعراء أدب القوم ، راحوا يتوسعون فى أغراض الشعر ، ويلونون فى مطالبه . وما برحوا يتدرجون فى هذا السبيل ، ويخوضون بالقريض فى فنون من المعانى لم يخضها من تقدمهم . وهم إلى الآن جادون فى طلب المزيد .

ومن شعراء عصر محمد على : السيد اسماعيل الخشاب (توفى سنة ١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م) ، والشيخ حسن العطار (١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م) ، والسيد على الدرويش (١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣) ، والشيخ شهاب المصرى (١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م) .

ومن شعراء عصر اسماعيل : محمود صفوت الساعاتى ، (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م) والسيد على أبو النصر (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م) ، وعبد الله باشا فكرى (١٣٠٧ هـ — ١٨٩٠ م) ، والشيخ على الليثى (١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م) ، وعثمان بك جلال (١٣١٦ هـ — ١٨٩٨) .

وهكذا نهض الشعر فى عهد إسماعيل وبعده وخاصة بعد ظهور الدواوين

والمطبوعات العربية والأدبية ، فاتسعت أغراضه ، وتناولت إلى جانب الأغراض القديمة الأوصاف وشئون الاجتماع والسياسة والوطنية ؛ وقويت معانيه بجمال المشاهدة ودقة الملاحظة وأثر الثقافة فى عقول الناس وأفكارهم ، وعادت إلى ألفاظ الشعر السلامة والصحة والقوة والبلاغة .

— ٣ —

ويقول العقاد : إن الخشاب والعطار والأمير ، ثم محمود سامى البارودى ، ثم اسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم ، ثم مدرسة الأدب الحديث إلى العهد الحاضر ، هى معالم الأدب بمصر فى القرن الأخير .

يقول الخشاب يتغزل :

أدرها على زهر الكواكب والزهر	واشراق ضوء البدر فى صفحة النهر
وهات على نغم المثانى فعاطنى	على خـــدك المحمر حمراء كالجمر
وموه لجين الكأس من ذهب الطلا	وخصب بنانى من سنا الراح بالتبر
وهاك عقوداً من لآلى حبابها	فم الكاس عنها قد تبسم بالبشر
ومزق رداء الليل واخ بنورها	دجاه وطف بالشمس فينا إلى الفجر
وأصل بنار الخـــد قلبى وأطفه	بـــبرد ثناياك الشهية والثغر
وفى ذابل الأجفان كالبيض طرفه	مكحلة أجفانه السود بالسحر
رشا فاتك الألحاظ عيناء غادرت	فؤادى فى دمعى دما سائلا يجرى

وقال العطار يرثى بعض العلماء ، أو كما قال الجبرتى : «وقد رثاه أمثل من عنه أخذ . وأكمل من له تتلمذ . صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية والمشار إليه فى العلوم الأدبية . صاحب الانشاء البديع . والنظم الذى هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار . حفظه الله من الاغيار » :

عزاء بنى الدنيا بفقد أئمـــة	لكأس مرير الموت كل تجرعا
يمينا لقد جل المصاب بشيخنا الـ	سوق وعاد القلب بالهم مـــترعا
فللناس عذر فى البكاء وللأسى	عليه ، وأما فى السواء فتجزعا
وكيف وقد ماتت علوم بفقده	لقد كان فيها جهبذيا سميذعا
يقرز فى فن البيـــان بمنطق	بديع معانيه يتوج مسمعا

وقال الأمير يصف :

تخيلت أن الشمس والبحر تحتها   وقد بسطت منها عليه بوارق
مليح أتى المرآة ينظر وجهه   فنى وجهها من وجهه الضوء دافق

وقال في الحكمة :

دع الدنيا فليس بها سرور   يتم ولا من الأحزان تسلم
ونفرض أنه قد تم فرضاً   فهم زواله أمر محتم
فكن فيها غريباً ثم عبي   إلى دار البقا ما فيه تغنم
وإن لابد من لهو فهو   بشيء نافع والله أعلم

وتمام الصورة التي تمثل الأدب في ذلك الحين ينبغي أن نعلم أن العطار والأمير مغربيان ، وأن ديوان الخشاب طبع في الآستانة لا في القاهرة ، وأن العطار لم يجمع له ديوان ، وأن كثرة المغاربة في الأدباء يومئذ أمر لا غرابة فيه . إذ كانت الدراسة في الجامع الأزهر ضرورية لتخريج الشعراء والأدباء .

هذه صورة مجملة كفيلة بتمثيل حالة الشعر المصري في ذلك العهد . وأصدق ما توصف به أنها كانت حينذاك حالة تقليد للتقليد ، يندر فيها الابتكار جداً أو ينعدم في معظم الأحوال . وإنما القاعدة المطردة أن يقلد الشاعر المتأخرين من شعراء دولة المماليك ودولة الفاطميين ، وإذا علمنا أن شعراء هاتين الدولتين كانوا على الأغلب الأرجح مقلدين للمتأخرين من العباسيين ، فقل ما شئت بعد ذلك في أدب هو تقليد للتقليد : أدب رسمت للناظمين فيه والناثرين قوالب القول وأساليبه قبل أن يدخلوا المكتب ، وقبل أن يهبطوا من الأرحام .

ومن هذه الحالة انتقل الأدب انتقالا محسوساً ، وإن لم يكن بالواسع المدى ولا بالبعيد الغاية ، فأصبحنا نقرأ شعراً تغلب فيه أنماط هذه الديباجة :

رقت لرقة حالتي الأهواء   وحنت على البانة الهيفاء
وبكى الغمام على من أسف وقد   كادت تمزق طوقها الورقاء
ماذا تريد الحادثات من امرىء   من جنده الشعراء والأمراء

دعها تمد كما تشاء شباكها فلربما علقت بها العنقاء

أو ظهرت بعبارة أخرى مدرسة محمود صفوت الملقب بالساعاتى ، وهى مدرسة تمتاز على من سبقتها بمسحة واضحة من الفصاحة والجزالة ، وتعرف أن شعر العروض والنحو والقواعد المرسومة شىء بعاب ولا يحسن بالأديب . وأن الابتكار مطلب مفروض على الشعراء والناثرين . ويقول ترجمانها المعبر عنها فى وصف شعاره :

فدعنى من قول النحاة فإنهم تعدوا لصرف النطق من غير لازم
إذا أنا أحكمت المعانى خفضتهم وأرفعها قهراً بقوة جازم
وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

وهو مع هذا يعيب أولئك الشعراء ويكثر مثلهم من التورية والتجنيس والمباهاة بعرفان القواعد ، وينحدر أحيانا إلى مثل ما كانوا ينحدرون إليه من التكلف والركاكة والتقليد .

ثم انتقل الشعر نقلته الكبرى على يد محمود سامى البارودى ، فأصبح شعراً معبراً صادق التعبير بليغ الأداء يضارع فى بعض قصائده أرفع ما ارتفع إليه الشعر العربى فى عصر من عصور الأقدمين . وإلى هنا يصح أن نقول إن القرن الأخير ابتدأ بتقليد التقليد ، ثم توسط بالتقليد الذى ينظر فيه الشاعر إلى كبار الفحول الاسبقين لا إلى الصغار المتخلفين ، ثم أوشك أن ينتهى باستقلال الفكر والسليقة على عهد البارودى إمام المجددين ، ثم دخل مع الأمة فى طور آخر يصح أن يسمى تقليداً جديداً لأنه يتوخى محاكاة الأدب الأوربى ولكن على اختلاط فى الفهم والنقد وتمييز المذاهب والآراء . أما بعد عصر البارودى فقد أخذ الأدباء يسمعون عن أقسام الشعر الاوربى ويفهمون أن منها ما يسمى بالغنائى ومنها ما يسمى بالملاحم ، ومنها ما يسمى بالتمثيل ، ومنها ما يسمى بالقصصى ، ومنها ما يسمى بالتعليمى ، إلى آخر ما هنالك من التقسيمات والقواعد التى يلتزمونها فى كل قسم من الأقسام .

ومن ثم تشعبت الآراء فيما ينبغى للشاعر أن ينظم فيه ليحسب من الشعراء « النافعين العاملين » : فمن قائل إن الشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا نظم فى الملاحم والقصص ، مع أن كثيراً من أعاظم الشعراء لم ينظموا فى هذين البابين ؛ ومن

قائل : إن الشاعر العظيم هو الذى ينظم فى الاجتماعيات ويقود أمته فى النهضات والثورات ، مع أن الاجتماعيات عمل والفن عمل آخر قد يلتقيان وقد لا يلتقيان ، وقد كان بعض الشعراء يسكتون فى إبان الثورات الاجتماعية والسياسية أو يشتركون فيها بالعمل السياسى لا بالقصائد والأناشيد ، كما فعل ملتون فى انجلترا وفكتور هوجو فى فرنسا ، وهما من أعـــلام الأدب فى الأمتين ومن قائل أن وصف المخترعات الحديثة هو واجب الشاعر الحديث ، لأن الشاعر الجاهلى قد وصف الناقة فلا محيص لشاعر القرن العشرين من وصف القطار والطيارة . . . مع أن الشاعر الجاهلى لم يصف الناقة لأنها مخترع من المخترعات ولا لأنها أداة مواصلات ، ولا لأنها شىء قديم أو حديث ولكن لأنها جزء من حياته وقوام شعوره ، باق يعيش فى زماننا كما كان يعيش فى ذلك الزمان .

ومن قائل: إن المدح والهجاء لا يليقان بشاعر القرن العشرين لأنهما بابان من من الأبواب المصطلح عليهما فى دواوين المقلدين . . . مع أن المدح والهجاء واجبان على الشاعر إن صدق فيهما وعبر بهما عن إحساس يحيك بنفوس بنى الإنسان . وقس على ذلك تبلبل الأفكار والآراء فى المدرسة التى أعقبت مدرسة البارودى واشتهر منها اسماعيل صبرى وأحمد شوقى ومحمد حافظ ابراهيم ، فهى مدرسة التقليد من نوع جديد .

اثر العصر فى الأدب

وبعد فإن البيئة والعصر قد أثرتا تأثيرا كبيرا فى الأدب العربى فى هذه الفترة :

فالحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، الثقافية بل والاقتصادية ظهر أثرها بوضوح فى الأدب شعره ونثره ، والأدب مدين لأعلام خالدين نبغوا فى هذه الفترة ، ومهدت أفكارهم السبيل لمن أتى بعدهم ، وأضاءت عبقريتهم شعاب الحياة وظلامها ، وأقامت منارا رفيعا للأدب فى الفترة الثانية .

وقد مهد للنهضة شيوخ الأزهر الكبار ، وفى مقدمتهم الشيخ عبد الله الشرقاوى (١١٥٠ — ١٢٢٧ هـ = ١٧٣٧ — ١٨١٢ م) ، ومحمد الأمير (١١٥٤ — ١٢٣٢ هـ = ١٧٤١ — ١٨١٧) ، والعطار (١١٨٠ — ١٢٥٠ هـ = ١٧٦٦ — ١٨٣٥ م) ، والجبرتى (١١٦٧ — ١٢٣٧ هـ = ١٧٥٣ — ١٨٢٢ م) ، والشيخ حسن قويدر تلميذ العطار وشارح منظومته فى النحو (١٢٠٤ — ١٢٦٣ هـ = ١٧٨٩ — ١٨٤٦ م) ، وتلاهم الشيخ محمد الانبابى (١٢٤٠ — ١٣١٣ هـ = ١٨٢٤ — ١٨٩٦) . وكذلك مفكرون آخرون كبار من مثل : رفاعة بك الطهطاوى[1] (١٢١٦ — ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ — ١٨٧٣ م) ؛ وعبد الله فكرى (١٢٥٠ — ١٣٠٧ هـ = ١٨٣٤ — ١٨٩٠ م) وأثره فى جيله كبير ، كما أثر عبد الله نديم فى جيله الذى أتى بعد هذا الجيل (١٢٦١ - ١٣١٤ هـ : ١٨٤٤ — ١٨٩٦ م) .

وكان الأدب مكبلا بقيود الصنعة والابتذال والعامية ، ولكن إحياء الثقافة الأدبية وجهود العلماء والأدباء ، جعلت الأدب يأخذ فى التحرر فى آخر العصر ، وفى النهضة والقوة والجزالة .

---

(١) ٢٠ — ١/٣٣ فى الأدب الحديث لعمر دسوقى ، ٢/٧ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو .

الادب المصرى

فى الفترة الثانية

بعد الثورة العرابية

١٨٨٢ — ١٩٣٢ م

نهضة الأدب فى مصر

فى الفترة الثانية (١٨٨٢ — ١٩٣٢ م)

تمهيـــد :

خمسون عاماً طوالا مرت على مصر ، كانت كلها كفاحاً طويلا ، ونضالا مستمراً ، وجهادا خالدا على مر الأيام ، وكان هذا الكفاح فى كل ميدان وسبيل فى السياسة والتحرر الاجتماعى والثقافى والسياسى بل والأدبى .

خمسون عاماً بدأت بمأساة دامية فى تاريخنا ضد مصر وحريتها ، مأساة تآمر البيت العلوى على استقلالنا القومى وفتح أبواب مصر الحصينة للجيش الانجليزى المستعمر .

خمسون عاماً ، بدأت منذ بدأت الثورة العرابية فى مصر ، وشهدت كفاح الأحرار المصريين فى سبيل الحرية من أمثال محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول الذى قامت على يديه الثورة المصرية الوطنية الخالدة على ١٩١٩ ، وانبعثت من الأزهر الشريف مدوية مدمرة ، مؤذنة ببدء عصر جديد فى الشرق العربى ، عصر الكفاح من أجل حرية الشعوب العربية ، وفى سبيل وأد الاستعمار الجاثم على صدرها ، والذى يحكمها بالحديد والنار ، وكأن الحرية هى معبود العرب ، وأملهم الباسم المشرق الوضاء ، فاقتحموا الحديد والنار فى سبيل نيل هذا الأمل المنشود :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

قصة الثورة العرابية :

تولى توفيق الحكم بعد عزل أبيه اسماعيل فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ ، وقد بدأ عهده باقالة وزارة شريف باشـــا لاذنب جنته ، إلا أنها كانت تعمل على خلق نظامى نيابى صحيح ، ووضع لائحة دستورية تحقق رغبات الشعب ؛ وتولى توفيق نفسه رياسة الوزارة بعد شريف ، فثار الرأى العام ضد هذه السياسية الرجعية ، ونفى توفيق جمال الدين الأفغانى إلى جدة فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ ، وبعد قليل دعا توفيق رياض باشا لتأليف الوزارة فألفها فى ٢٢ سبتمبر ١٨٧٩ ، مع منح

توفيق حتى ترؤس مجلس النظار ، وكان رياض مكروها من الوطنيين الأحرار ، وكانت سياسته تمليها الرجعية وخدمة الحاكم وعملائه ، ومن ثم لم يضع لائحة « دستورية » ، ولا دعا المجلس القديم للانعقاد ، فثار الأحرار على حكمه الفردى ، وأخذ هو يستعمل أسلوب العنف والاضطهاد للتنكيل بالوطنيين ، وإهمال شأن الجيش ، مما أدى إلى تذمر الضباط فى الجيش بزعامة أحمد عرابى البطل الثائر ، ولا سيما بعد أن وضحت لهم سياسة عثمان رفقى الشركسى وزير حربية مصر آنذاك ، وكان يعمل على محاربة الضباط المصريين وتخصيص الأتراك والشركس بالعطف والترقية والمناصب الرفيعة دون دون جدارة أو استحقاق .

ثار الضباط المصريون ، ورفعوا شكوى إلى رئيس النظار فى ٢٠ مايو ١٨٨٠م ، طالبوا فيها بإصلاح الجيش ، وتندوا بسياسة رفقى فى الحربية ، وكان رد رفقى على ذلك أن حال بين الضباط المصريين وبين الترقية إلى مناصب الجيش العليـــا ، فغضب رؤساء الجيش المصرى ، ووكلوا إلى أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى تقديم شكوى أخرى ، فقدمها الضباط الثلاثة إلى رياض فى ١٥ يناير سنة ١٨٨١ ، وطالبوه فيها بحياة نيابية ، وبعزل رفقى ، وإصلاح شأن الجيش ؛ وكان رد الخديوى ورياض باشا على ذلك اعتقال الزعماء المصريين الثلاث وتقديمهم للمحاكمة أمام مجلس عسكرى فى أول فبراير سنة ١٨٨١ م ، ولكن فرق الجيش سارت إلى مقر المحاكمة ، وأطلقت سراح الزعماء ، ثم توجهت إلى عابدين مطالبة بإقالة وزير الحربية الشركسى ، فعزله توفيق ، وأحل محله « محمود سامى البارودى » ، ولكن ضباط الجيش أدركوا أخيراً أن الحكومة تتآمر بهم ، ورأوا أن خير حل لمشكلات مصر الداخلية والخارجية هو إقامة حكومة دستورية ، ومن ثم اتصل عرابى بوجوه الأمة ، فأمضوا له توكيلا عاماً يفوضون إليه أمر المطالبة بحكم دستورى ، وفى أثناء ذلك استقال البارودى تحت تأثير توفيق وتهديده ، فثار الشعب والجيش جميعاً ، وقاد عرابى مظاهرة شعبية كبرى فى عصر يوم الجمعة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، تطالب بإقالة وزارة رياض ، وتشكيل مجلس نواب وفق النسق الغربى ، وسوى ذلك من المطالب العادلة ، فاضطر توفيق إلى الخضوع لمطالب الشعب والجيش ، وألف شريف باشا من جديد الوزارة وظل من سبتمبر سنة ١٨٨١ م حتى فبراير سنة ١٨٨٢ م يعمل فى سبيل تحقيق آمال الأمة فافتتح المجلس النيابى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقاوم التدخل الأجنبى فى شئون

مصر ، ثم استقال شريف وخلفه فى رياسة الوزارة محمود سامى البارودى ، وكان عرابى ناظرا للحربية فى هذه الوزارة ، وأخذت الوزارة الجديدة تعمل للاصلاح ولسيادة كلمة الأمة وسلطانها ، ولمقاومة التدخل الأجنبى ، ولكن الخديوى وأنصاره من المستعمرين والترك والشركس أخذوا يدبرون المؤامرات ويحوكون الدسائس للقضاء على مصر وحريتها وعلى حركة الإصلاح التى عملت لها الوزارة ، وفوجىء الشعب بوصول أسطول إنجليزى فرنسى إلى الاسكندرية ، وبسفيرى الدولتين يقدمان مذكرة فى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ يطلبان فيها إقالة الوزارة ، وإبعاد عرابى عن مصر ، وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى الأرياف ، فقدم البارودى استقالته فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ ، محتجا على مسلك الخديوى وخيانته للوطن وتآمره مع المستعمرين ، وخلال ذلك وقعت حادثة الاسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ إذ نشبت معركة فى المدينة بين المصريين والأجانب قتل فيها عدد كبير ، وأرسل سيمور أميرال الأسطول الإنجليزى إنذارا فى فجر ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ بضرب الاسكندرية إذا لم تهدم تحصينات الاسكندرية الحربية ، وفى صباح ١١ يوليو أخذ الأسطول الإنجليزى يضرب المدينة بمدافعه ويصليها نارا حامية ، حتى سلمت المدينة ونزلت الجنود الإنجليزية فيها واستمرت المناوشات بين الإنجليز والجيش المصرى فى دمنهور وكفر الدوار ، ثم أخيراً فى التل الكبير ، ولكن دسائس الاستعمار وخيانة توفيق ساعدتا أخيرا على هزيمة جيش مصر فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م عند التل الكبير ، ودخل الجيش الإنجليزى القاهرة فى اليوم نفسه ، وبدأت محاكمات العرابيين وسياسة وأد الوطنية والقومية المصرية بقوة النار والحديد ، وهكذا توالت الأحداث على مصر الخالدة ، وكان أولى هذه الأحداث هو الاحتلال الانجليزى على مصر ، الذى بدأ فى أعقاب الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، والذى كان كابوساً رهيباً مفزعا ألقى على صدر الوطن ، ومنعه من التنفس والحركة والنشاط وكل مقومات الحياة ، وعطل نمو القوى ونشاطه الإنسانى فى سبيل التقدم والحرية والمجد والكرامة والتطور البشرى المنشود .

وكان الشعب المصرى يضيق ذرعا بهذا الاحتلال ، ويعيش على مضض حين يرى المحتلين يمشون على أديم الوطن العزيز ، ويعمل كل ما يستطيع لمقاومة الغاصب والقضاء على الاحتلال وعهد الاحتلال .

وأخذت الروح الوطنية تشتعل بين شباب الوطن ، وتوقدهم عزما وتصميما على إنقاذه من براثن الأسد المحتل ، وكان من آثار ذلك أن قام الوطنيون المصريون بكثير من المناوآت السياسية لانجلترا ، وأن شكل الحزب الوطنى بقيادة المرحوم الشاب مصطفى كامل باشا م ١٩٠٨ م ، بتشجيع الشعب وعطفه وتوجيه .

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى واستمرت أربع سنوات طوال ، انتهت بعدها ، وبدأت مصر تطالب بحرياتها ، فاشتعل لهيب الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ، وبدأ النضال من جديد ، نضال شعب فتى فى سبيل آماله الكبار . ومستقبله وحريته واستقلاله المنشود ، وانتهت الثورة بالاستقلال والحياة البرلمانية ، واستقرت الأمور قليلا قليلا ، ولكن فؤاداً أخا توفيق لم يكن يرضيه أن ينال الشعب حريته وأن ينعم بالإصلاح ، فحارب الوطنية المصرية ، وسلط بعض الأحزاب على بعض ، ودأب يكيد للأحرار ويمتحنهم امتحانا شديدا .

الثورة الفكرية فى هذا العهد :

خلق الأفغانى فى الشرق الإسلامى عامة وفى مصر بصفة خاصة ثورة فكرية عامة تنزع إلى الإحياء والنهضة والتجديد وحرية الشعوب الإسلامية كافة ، وكان أعظم وارث لآراء الأفغانى وأفكاره ، ومبادئه وثقافته الإمام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) ، المصلح المجدد ، والفيلسوف المفكر ، والداعية إلى نهضة الوطن وحريته .

قوى محمد عبده الروح الدينية والاجتماعية والأدبية والوطنية فى مصر ، ودعا إلى الاقتباس المفيد من حضارة الغرب وثقافته ، واعتبر ماضى الأمة الاسلامية هو الأساس العام للحياة القومية والفكرية فى مصر والشرق ، وقد أوضح آراءه وأفكاره فى مجموعة من المقالات والبحوث ، تعتبر فى لغتها وأسلوبها فتحا فى عالم الصحافة بما امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة وهى مزايا الأسلوب القديم ، ومن الدقة والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر لثقافاته الحديثة ، وبجانب محمد عبده كان رجال الثقافة يعملون لتعزيز النهضة ، كعبد الله فكرى (١٨٣٤ — ١٨٩٠) ، وعلى مبارك (١٨٢٣ — ١٨٩٣) وزيرى المعارف المشهورين .

وزاد إنشاء الجمعيات السياسية والعلمية والأدبية بمصر ، وأعضاء هذه الجمعيات هم الذين قاموا بأهم الأدوار فى الحركة الدستورية التى اقترنت بالثورة العرابية . ومن أبرزهم الشاب الوطنى الثائر مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) ، ومحمد فريد م ١٩٢٠ ، وقاسم أمين(١٨٦٥ —١٩٠٨) ، وأمين الرافعى (١٨٨٦ —١٩٢٧) ، والمرحوم على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، ثم سـعد زغلول م ١٩٢٧ ، وعبد العزيز فهمى وسواهم .

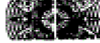
وفى عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى إلى إحياء الفكرة العربية وتجديد ثقافتها القديمة ، فكانت هذه الحركة الذهبية قبسا سطع منه عهد الاحياء العربى الجديد ، وواجهت هذه اليقظة الذهبية الحركة السياسية التى قام بها فتيان الأتراك من أجل تتريك كل العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربية ، وألفت جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسهم الشباب الذين تعلموا فى الأزهر وجامعات القسطنطينية وأوربا ، وأذكى الروح الوطنى فوق ذلك تغلغل الاستعمار فى مصر والشرق العربى .

وعززت جريدة المؤيد (١٨٩٥ — ١٩١٣ م) التى أنشأها على يوسف ، ثم (اللواء) التى أخرجها مصطفى كامل ، ثم (الجريدة) التى كان يحررها أحمد لطفى السيد ، الروح الوطنى تعزيزاً كبيرا ، و (على يوسف) شيخ مشيخة السجادة الوفائية أزهرى ولد فى (بلصفورة) من مديرية جرجا وتلقى علومه فى الأزهر وقرأ طرفا من كتب الأدب واستظهر صدرا من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها ، وابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيه تلك النهضة البيانية المشرقة التى أشعلها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغانى . ثم بالتوجيه والتثقيف المرحوم الشيخ حسين المرصفى ١٨٨٩ م ، ثم كان لقوة روحه وشخصيته وذكائه وعقليته وملكاته الجبارة أثر فى أسلوبه الجديد الذى كان نهجا من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات فيما قبل .

وبجانب هؤلاء الأعلام فى النهضة كان كثير من العلماء والأدباء يعملون لإذكاء النهضة وتجديد الثورة الفكرية وإحياء الثقافة العربية . ومن بينهم : الشيخ قدرى أستاذ ولى عهد الخلافة العثمانية وكان رجلا مفكراً مثقفاً ثقافة واسعة وفد إلى مصر ، وكان يحضر مجلسه أعلام الفكر فيها يسمعون منه ويصغون له ، وفى جملتهم إبراهيم

المويلحى بك الكاتب الوطنى الساخر م١٩٠٦ . ومن بينهم أيضا الشدياق م١٨٨٧ والشيخ حسين المرصفى م ١٨٨٩ ، وعبد الله فكرى ١٨٩٠ ، وعبد الله نديم م ١٨٩٦ ، وابراهيم المويلحى م ١٩٠٦ ، والشيخ ابراهيم اليازجى م ١٩٠٦ ، وقاسم أمين (١٨٦٥ – ١٩٠٨ م) ، والشنقيطى والبكرى ، والشيخ أحمد مفتاح م ١٩١٠ ، وأحمد فتحى زغلول م ١٩١٤ ، وجورجى زيدان (١٤ ديسمبر ١٨٦١ — ١٩١٤) ، والشيخ حمزه فتح الله (١٨٤٩ — ١٩١٨) ، وحفنى ناصف م ١٩١٩ ، ويعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧ م) منشىء المقتطف ، وحافظ وشوق وسواهم .

وهكذا اجتمع فى هذه العاصمة وفى فجر هذا العصر طبقة من الرجال نضجت فى شتى نواحى الانتاج ، ومنهم الكتاب واللغويون والعلماء والخطباء والشعراء ، ولم يكن يرتفع إلى درجة أديب أو خطيب أو كاتب فى ذلك العصر إلا من درس اللغة وتعمق فيها وقرأ المخصص وراجع لسان العرب ، وألم بأمهات المنثور والمنظوم فى الأدب ، مثل كتب المبرد والجاحظ ودواوين الشعراء ، إلى جانب المطالعات المتصلة فى أدب الشرق والغرب .



النهضة الثقافية فى مصر

فى هـــذه الفترة

تمهيـــد :

عقب الثورة العرابية والقسوة القاسية التى أخمدت بها خمول فكرى عام ، وهبوط فى النشاط الذهنى يقرب من الموت . . إلى أن كان عام ١٨٩٠ فأخرج الشيخ على يوسف المؤيد ، وبدأت كتاباته تثير فى نفوس المصريين شعور العزة ، وتحرك عواطف مكبوتة كادت نيرانها تخبو . فاستيقظت روح مصر فجأة ، وطافت برؤوس أهلها خيالات المجد القديم ، وازدحمت صدورهم وأفواههم بمعانى الاستقلال ، وحب الوطن . . تمزق السكون ، ودوى بوق المؤيد بالصرخات الأولى ، وزخرت صفحاته بالمقالات الملتهبة المتزنة ، فكانت خير ترجمان لإحساس الشعب ، وهى اليوم وثائق من تاريخ مصر الحديث ينبغى ألا تطوى ، بل يجدر بكل مصرى أن يضعها تحت ناظريه كمثال لما صنع الجيل القديم . . ولم تكن الكتابة فى المؤيد قاصرة على طائفة المحررين الذين يوكل إليهم كل شىء فى تحرير الصحف الآن ، بل كان يكتب لهذه الجريدة كل صاحب قلم ، وكل صاحب رأى ، من كبار الموظفين ، وأصحاب المناصب الرفيعة فى الدولة ، يحجبون أسماءهم عن الناس ، خشية السلطة الرقيبة الباطشة ، ولكن مع هذا يؤدون مهمتهم فى النهوض القومى على أحسن وجه وأقومه . كان فى مقدمتهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وغيرهما من جهابذة الشيوخ . وجاراهم القضاة والمحامون ، ورجال الثقافة فكانوا جميعا يكتبون .

وقد صحب هذا الغليان الفكرى المفاجىء انتعاش كل ناحية من نواحى الفكر المصرى ، فنهضت لغة الكتابة ولانت ، ونبغت أقلام فى النقد ، وفى السخر واللذع إلى حد لم يعرف من قبل ويعز نظيره اليوم . وحسبنا أن نذكر مثالا لهذه العقلية الناقدة المرحوم إبراهيم بك المويلحى ، الذى كان نادرة زمانه ، جمع فى نفسه ضروباً من المتناقضات ، صيرته شخصية فذة ، محبوبة من الجميع ، مرهوبة من الجميع . . فقد ظهر بأسلوب امتاز به وحده ، فيه الفكاهة البارعة ، والسخرية اللاذعة ،

والطرافة ، والسلاسة . انظر إليه مثلا ، وهو يقول في نقد كرومر : « جاء موسى صلوات الله عليه إلى مصر ، وكان سكانها ثلاثون ألفاً ، ففر من ظلم أهلها . ونزل كرومر أرض مصر ، وكان سكانها عشرة ملايين ففر الظلم منه وأى من كرومر » ، أو قوله في وصف رجال المابين التركى : « فما بالك بقوم لو وجدوا صداق البتول معلقاً بأستار الكعبة لسرقوه » . ولم يكن المويلحى يقتصر في نقده على شخص دون شخص ، أو جماعة دون جماعة ، فقد تحامى الناس جميعاً من قلمه الحول فخاف بأسه الخديو ، وهو أكبر رأس في البلاد وخشيه الشيخ محمد عبده ، وهو أكبر العلماء شأناً ، وخشيه الموظفون وأصحاب الجاه والسلطان ؛ حتى إن جمال الدين الأفغانى كان يقول عنه : « كنت أظنه كالكلب العقور ، يعض كل الناس إلا صاحبه ، فإذا به كالكلب الكلب يعض حتى صاحبه » .

وكتاب المويلحى (ما هنالك) وهو مجموعة مقالات نشرها في « المقطم » عن الحياة العثمانية ، شاهد على تفتق الذهنيــة المصرية ، وتفتنها ، واصطدام الآراء واحتدامها ، وقد يكون في هذا الصدام خروج عن جادة الخلق إلا أنه كان موقدا للشرر في النفوس ، باعثا للالهام ، موحيا بالحركة والنشاط . ولقد أصدر المويلحى صحفا كثيرة ، منها أبو زيد الهلالى ، والأنباء التي كان يضع شعاراً لها الآية الكريمة (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر) ، ولقد انقرض هذا النوع من الأدب الكتابى ، هذا النوع من التفرد الفكرى الذى قد لا يكون له أثر في تصرفات الشخص الخاصــــة ، والذى كانت تستفيد منه الحياة الفكرية أكبر فائدة . ولم يبن المويلحى مكانته الأدبية إلا بعد تحصيل وجد ، فقد كان يحسن التركية ، بل كان يعد من كبار أدبائها ، وكذلك كان يجيد الفرنسية إلى حد بعيد ، وكانت تتمثل في ذهنه الثقافات الشرقية والغربية في توازن تام ، فإذا أضفنا إليها طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه والملابسات الجمة التي تأثر بها وأثر فيها ، استطعنا أن نفهم ناحية من نواحى التفكير المصرى على وجهها .

ولا يمكن ، وقد ذكرنا المويلحى الكبير ، أن ننسى عالما أعجميا وفد إلى مصر في ذلك العهــد هو الشيخ قدرى أستاذ ولى عهد الخلافة العثمانية رشاد أفندى . . كان هذا الرجل يجيد اثنتى عشرة لغة إجادة تامة كتابة وخطابة وتأليفا ، وكان يتخذ له مجلسا دائما لا يبرحه في إحدى المقاهى المعروفة ، فيفد عليه أعلام الفكر

فى مصر ، يسمعون منه ويصغون له ، حتى كان يبلغ عدد زواره فى معظم الأيام ٥٠ شخصا أو أكثر، وفى جملتهم المويلحى ، وقد استطاع « خواجه » قدرى بماله من مكانة فى العلم والأدب أن يلطف من شر المويلحى ، وأن يجعله شخصا أليفا ، يجد من يصغى له ، فيحسن الاصغاء . وكان الشيخ قدرى هذا يقضى وقتـــه فى عملين لا ثالث لها : الكتابة إذا خلا مجلسه من الناس أو ممن يعنيه أمرهم ، والتحدث إذا وفد إليه من يقربه لهم ، وهو بين الكتابة والحديث دائم التدخين فى (شيشته) ، وبهذه الطريقة أتم عشرات المؤلفات بلغات مختلفة طبع بعضها فى مصر ، وبعضها فى باريس .

وهكذا اجتمع فى هذه العاصمة وفى فجر هذا العصر طبقة من الرجال نضجت نضوجا تاما ، فى شتى نواحى الثقافة والإنتاج ، منها الكتاب الأفذاذ واللغويون الجهابذة والعلماء الأعلام والخطباء المفوهون والشعراء الأمجاد . ولم يكن يرتفع إلى درجة أديب أو خطيب أو كاتب فى ذلك العصر إلا من درس اللغة وتعمق فيها ؛ فليس منهم من لم يقرأ المخصص لابن سيده ، أو لم يراجع لسان العرب ، أو من لم يقرأ أمهات المنثور والمنظوم فى الأدب ، مثل كتب المبرد والجاحظ ودواوين القدماء ، هذا إلى جانب المطالعات المتصلة فى أدب الشرق والغرب . ومثال هؤلاء الأعلام : الشيخ الشنقيطى والأستاذ توفيق البكرى والشيخ محمد عبده الشيخ ابراهيم اليازجى والشيخ المهدى والشيخ حمزة فتح الله وحفنى ناصف وغيرهم .

اتجاه الثقافـــة :

وقد اتجهت الثقافة فى هذه الفترة إلى أمرين :

أحدهما : إحياء التراث القديم العربى الإسلامى بالطبع والنشر ، وبالبحث والدرس ، وبالتذوق والتمثل .

والثانى نقل العلم الأوربى بالترجمة والتعلم فى المدارس الوطنية ، والاختلاف إلى معاهد التعليم فى أوربا نفسها ، ومهما وجـــد من تنافر بين أصحاب الأمرين فإنه تنافر يؤدى إلى التقارب الفكرى لا إلى التخاصم العقلى والثقافى ؛ فالذين يحتفظون بالتراث القديم ولا يضيفون إليه شيئا أو لا يضيفون إليه إلا ظاهراً من آثار الحياة الحديثة يقضون فى الأمور دائما كما كان يقضى فيها القدماء

ويعيشون عيشة مزدوجة متناقضة . فهم محدثون فى حياتهم المادية لأن التطور المادى سريع بطبعه ، وهم قدماء فى حياتهم المعنوية لأن التطور المعنوى بطىء بطبعه. وما أكثر ما نرى من الناس من يفكر كما كان يفكر أهل القرن التاسع أو العاشر للهجرة ، ويعيش كما يعيش المترفون من أهل لوندرة وباريس .

الصراع بين الثقافة الشرقية والغربية :

وهذا الاختلاف الثقافى الذى نلمسه بين أنصار القديم وأنصار الجديد وهو الذى قسم الثقافة والمثقفين إلى معسكرين :

معسكر ينادى بالرجوع إلى القديم لأنه كاف جدا لكفاية لنضج الحياة العقلية عند العرب .

ومعسكر ينادى بالرجوع إلى ثقافة الغرب ، بل وإلى آداب الغرب للأخذ منها ، واستلهامها .

ويقول أصحاب الرى الأول : إنه إذا كان التراث العربى القديم قد أخرج عقولا ناضجة فى جميع العصور فكيف لايخرج هذه العقول اليوم ؟ أليس جمال الدين الأفغانى من أفذاذ الرجال وكل ثقافته ودراسته شرقية . ويقولون كذلك إنه على أية حال ليس لنا مناص من إحدى اثنتين : إما أن نقرر أن الشرق العربى خلا من الحياة العقلية الناضجة فى جميع العصور وهو مخالف للمعقول ومخالف لإجماع الآراء ، وإما أن نقرر أن هذا الشرق قد عرف الحياة العقلية الناضجة ولو فى عصر واحد من عصوره ، وهذا فى لبابه مرادف لقولنا : إن التراث الشرق كاف لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين .

ويقول أصحاب الرأى الثانى :

إن التراث الشرق فى العلوم والآداب والفنون هو ولاشك تراث مجيد، ولكنه مع ذلك لا يكفى لنضج الحياة العقلية الحديثة عند الشرقيين ، بل يجب لكى يصل هذا النضج إلى مداه من التقدم أن يجمع إلى التراث الشرق خير ما أنتجته وتنتجه القرائح والعقل البشرى فى الغرب . ولاغضاضة علينا فى ذلك ، فإن الأمم الأوربية نفسها وهى التى تم نضج الحياة العقلية فيها ، لا تفتأ كل منها تقتبس عن أية أمة أخرى فى الغرب أو الشرق مايظهر من مستحدثات التجارب والاكتشافات والمذاهب العلمية . ولذلك قالوا : إن العلم لا وطن له ، وإن كان العالم له وطنه

كما قال « باستور » ، والتراث الشرق فى ذاته لم يقف عند مستوى واحد ؛ ولم يقتصر على طابع واحد ، بل كان ينمو ويتطور على مدى العصور . وفى خلال هـذا التطور قد اقتبس من التراث الغربى القديم ، وكان ذلك من عناصر نموه وارتقائه .

ومن الواجب على الأمم الشرقية إلى جانب إحياء التراث الشرق القديم أن تقتبس عن الغرب تراثه الجديد ، وتأخذ عنه محاسنه ومزاياه . ولو أن حركة التقدم قد تابعت سيرها فى الشرق ولم يقفها ذلك التأخر الذى أصابه خلال قرون عديدة لزاد من غير شك تراثه فى العلوم والآداب ، ولما سبقه الغرب فى هذا المضمار . أما وقد بعد عهده بازدهار الحياة العقلية، فعليه إذا أراد بعث هذه الحياة أن يقتبس عن الغرب علومه الحديثة . وهذا على وجه التحقيق ما اتجهت إليه حركة النهضة العلمية والعقلية فى مصر منذ بداية القرن التاسع عشر ، وهذا هو الامام الشيخ محمد عبده الذى اقتبس ـ وهو الإمام الدينى العظيم ـ من العلوم والفلسفة الغربية ما اقتبس ، وطالع الكثير من كتب العلماء والمستشرقين والفلاسفة الأوربيين ، كان يتابع دائماً حركة التقدم العلمى فى أوربا ، ويخالط العلماء الغربيين ويحادثهم ويأخذ عنهم . وكذلك فعل غيره من أفذاذ النهضة ، وعمالقة الفكر المصرى الحديث .

الثقافة الأدبية فى هذه الفترة :

١ ـ سارت بعض الدراسات الأدبية فى العصر الحديث على النهج القديم مما تراه فى أمثال « الوسيلة الأدبية » للمرصفى ، وكتاب « المواهب الفتحية » لحمزة فتح الله ، ومجانى الأدب ، وشعراء النصرانية ، وسوى هذه الكتب .

ولكن الدراسات الأدبية فى أوربا منذ القرن الثامن عشر كانت تسير على منهج آخر ، كان باكون الفيلسوف الفرنسى م ١٦٢٦ أول من ابتكره وأرشد إليه ، إذ جعل التاريخ ثلاثة أنواع : التاريخ الدينى ، وتاريخ الاجتماع ، وتاريخ الآداب والفنون ، وبذلك كان أول من ميز الآداب والفنون بالتاريخ ، وقد اقتبس الإيطاليون فى القرن الثامن عشر هذا المنهج التاريخى الأدبى فى دراسة الأدب ، وطبقوه على دراسة الأدب العربى ، فكانوا أول من ابتكر علم تاريخ أدب اللغة

العربية ، وعنى المستشرقون ولا سيما الألمانيون بهذه الدراسات الشرقية الجديدة فى أدب اللغة العربية . ونقلها عنهم حسن توفيق العدل على إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريس هذا العلم فى المعلمين العليا ودار العلوم .

وبذلك وجدت ثقافة جديدة فى الأدب العربى ؛ مظهرها هو علم تاريخ أدب اللغة العربية ، وأساس هذا المنهج الجديد الجمع فى دراسة أدبنا بين المنهج الأدبى والمنهج التاريخى ، وذلك بتقسيم تاريخ أدبنا العربى إلى عصور ، ودراسة أدب كل عصر ، دراسة استيعاب وتحليل ، وشرح المؤثرات التى أثرت على الأدب العربى فى كل عصر ، وأشهر الأعلام التى نبغت فيه من شعراء وأدباء وكتاب . وهذا المنهج سار عليه جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية والزيات فى تاريخ الأدب العربى وأصحاب المفصل والوسيط ، والمرحوم محمود مصطفى ، والأستاذ محمد هاشم عطية ، والأستاذ السباعى بيومى ، فى كتبهم فى تاريخ الأدب العربى ، وسواهم من مشهورى الأدباء الذين كتبوا فى هذه الدراسات .

وألف الرافعى كتابه « تاريخ آداب العرب » وقد طبع فى ثلاثة أجزاء ، نقد فيه المنهج التاريخى ، ويدعو إلى أن يكون تاريخ الأدب فى كل أمة مفصلا وفق حوادثها الأدبية[١] ، وعلى هذا المنهج درس الأدب . . وقريب من منهجه هذا منهج أحمد أمين فى ضحى الإسلام وفجر الإسلام وظهر الإسلام ، وينقد طه حسين المنهج التاريخى الذى لايعنى إلا بجعل الأدب تابعا للعصور السياسية وحدها ، ويرى أن الحياة السياسية لا تصلح مطلقا لأن تكون مقياسا للحياة الأدبية ، وإنما السياسة كغيرها من المؤثرات فى الأدب ، ويرى أن دراسة الأدب العربى وفق هذا المنهج التاريخى — على نحو ما كان الأدباء فى دار العلوم ومدارس الحكومة يسيرون عليه فى أوائل القرن العشرين — إن هى إلا دراسة صورية لاتثقف عقلا ، ولا ترقى ذوقا[٢] . ويعرض طه حسين المناهج الأوربية الحديثة فى دراسة تاريخ الآداب[٣] ، ومن بينها : المنهج العلمى الذى كان من أعلامه فى فرنسا سانت بوف وتين وبرونتيير ، يدعو بوف إلى استنباط قوانين علم تاريخ الأدب

---

(١) ٦ – ١٨ ج ١ الرافعى .
(٢) ٣٦ – ٣٨ فى الأدب الجاهلى – طه حسين – طبعة ١٩٢٧ .
(٣) صفحة ٤٠ المرجع نفسه وما بعدها .

من دراسة شخصيات الكتاب والشعراء دراسة نفسية واسعة ، ويدعو تين إلى دراسة المؤثرات العامة فى الأدب من الجنس والبيئة والزمان ، ويرى أنه ينبغى أن يكون الغرض الصحيح من درس الأدب والبحث عن تاريخه هو تحقيق هـذه المؤثرات التى كونت الكاتب والشاعر ؛ ويدعو برونتيير إلى دراسة الفنون الأدبية المختلفة فى تدرجها الأدبى خلال الأجيال ، كالشعر التمثيلى والشعر القصصى مثـلا .

ومن المناهج الأخرى : المهج الأدبى أو القياس الأدبى ، الذى يتحرى عرض أذواق الكتاب والشعراء وشخصياتهم ، إلى جانب ذوق المؤرخ الأدبى وشخصيته .

وتستطيع أن تعلم كيف كان درس الأدب فى مصر فى أوائل القرن العشرين فى الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، بقراءة مقدمة كتابى « تجديد ذكرى أبى العلاء » ، و « الأدب الجاهلى » لطه حسين .

وقد استمر العلماء والأدباء فى مصر يبحثون « كيف تدرس الأدب » سنين طوالا ، وكان الجدل بين أنصار القديم وأنصار الجديد حول ذلك شديدا ، وكان لهذا الحجاج أثره فى تجديد دراسات الأدب ، فسرعان ما رأينا بعض الأدباء يؤلفون فى النقد الأدبى ، وآخرون يكتبون عن الأسلوب ، والبعض يكتبون دارسين لألوان الأدب وفنونه ، وأصبح علم مثل علم النقد متعدد الاتجاهات ، فالبعض يدرسون تاريخ علم النقد الأدبى ، والبعض يدرسون أصول النقد ونظرياته ، وآخرون يدرسون النقد ليوازنوا بين الأدباء بعضهم والبعض الآخر ، وهذا مايصح أن نسميه « الموازنات الأدبية » .

إن دراسة الأدب الإنشائى شعراً أو نثراً ، ودراسة الأدب الوصفى نقدا وتاريخاً لآداب اللغة العربية ، قد دخلت فى مرحلة جديدة ، بينها وبين القديم فروق واسعة ، فلقد جدد الأدباء المعاصرون فى دراسات الأدب ، ومزجوا به علم النفس وكتبوا فى النقد ، وألف زكى مبارك وسواه فى الموازنات بين الشعراء ، وحاولوا عرض الأدب القديم عرضا حديثا جذابا ، وحللوا الشخصيات الأدبية تحليلا قويا جذابا ، كما فعل طه حسين فى كتابه « تجديد ذكرى أبى العلاء » ، والعقاد فى « ابن الرومى » ، والمؤلف فى كتابه « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » الذى

جمع ألوانا قوية من التصوير الأدبي المشرق ، وقد مزجت فيه الدراسة الأدبية أحيانا بالنقد والأدب والتاريخ .

ومع ذلك فلا زلنا في أولى الخطارات في خدمة الأدب العربي وأداء رسالته وفي التجديد المثمر في باب الدراسات الأدبية ، ولا زلنا ننتظر خطوات أخرى من التجديد والإنتاج الأدبي العميق الواضح الشخصية ، وفي رأيي أن أساتذة الأدب هم المسئولون عن هذا التقصير الذي نعيش فيه، ونرى آثاره واضحة جلية في حياتنا الأدبية الراهنة ، فهم بكسلهم وخمولهم يقفون عن الإنتـــاج ويتركون البحث والدراسة ، ويكرهون تلامذتهم في الأدب العربي كافة .

٢ — ولقد ذاعت الثقافة الأدبية بشتى ألوانها في هذه الفترة إلى حد كبير : بتأثير الأزهر ودار العلوم وكليات الآداب وكثرة المنشور من كتب الآداب قديمها وحديثها وبتأثير الجمعيات الأدبية ، والصحف اليومية والأسبوعية الشهرية التي تعنى بالأدب ، وتفتح للأدباء صدرها ، وبسبب انتشار الثقافة العامة كذلك وهي أساس الثقافة الأدبية ؛ ومن ثم كان هذا العصر أوسع العصور من حيث انتشار الثقافات الأدبية وذيوعها بين الجماهير وأبناء الشعب كافة .

الصحافة وأثرها في نهضـة الثقافة :

ولقد استمر تأثير الصحافة في الثقافة والأدب حتى عهدنا هـذا ، بل وجدت صحافة علمية منوعة ؛ منذ أن اهتمت كل هيئة بأن يكون لها مجلة تنشر فيها بحوثها ، وقد كان لمحمد عبده أثر كبير في نهضة الصحافة في أواخر القرن التاسع عشر ؛ وهو الذي تولى العمل في الوقائع المصرية وطفر بها طفرة كبيرة في أواخر القرن الماضي ، وكانت الوقائع المصرية آنذاك تصدر من نسختين إحداهما عربية والأخرى فرنسية. وكانت الفرنسية حافلة بالأوامر والمنشورات والأخبار السياسية، وبكل مفيد لقرائها، وأما النسخة العربية فكانت جامدة عقيمة تمـــلأ بالأهازيج والأسجاع التافهة والأخبار المصوغة أسوأ صياغة ، ليس فيها شيء من الأدب إلا تلك الأسجاع ، وليست من السياسـة في قبيل ولا دبير ، وفي تلك الأيام أيضـا كان مصطفى رياض رئيس النظار وناظر الداخلية قد سئم ذلك الجمود في الوقائع المصرية في نسختها العربية ، وسمت به همته إلى تغيير أسلوبها وجعلها جريدة منتجة مفيدة للقراء والكتاب وعامة النفع . ولكن من الذي يضطلع برياسة تحريرها وينقلها إلى الطراز الجديد؟

استشار المرحوم عبد الله فكرى فأشار عليه بالشيخ محمد عبده . فقال إنه رجل مشاغبات فلا أحب أن يتولى عملا كهذا . وزاره بعد ذلك الشيخ حسين المرصفى فكاشفه رياض بذات نفسه وما يريد عمله فى الوقائع المصرية . فأشار إليه بالشيخ محمد عبده ـ فقال له ما قاله لعبد الله فكرى . فأجابه الشيخ حسين المرصفى بأن نصح له نصحاً خالصاً وقال له : ولو كان فى الشيخ محمد عبده ما يعاب عليه كان هو أولى الناس بإبدائه لأنه هو الذى خلفه فى دار العلوم . ثم رأى المرحوم رياض اجتماع كلمة من فاتحهم فى هذا الأمر على أن الشيخ محمداً عبده هو الكفء للاضطلاع به فأرسل إليه وعينه محرراً فى الوقائع .

جاء الشيخ محمد عبـــده إلى محل عمله فى الوقائع فلم يناط به عمل ولم يعهد إليه بتحرير شىء مما يكتب فيها . ولم يتغير فى كتابتها ولا فى أسلوبها شىء .

وفى ذلك الزمن تم عمل قانون التصفية الذى كان من أعضائه المستر بالج ، فأرسل رياض ذلك القانون إلى قلم التحرير بالوقائع لوضع مقدمة له وبعد ذلك تترجم إلى الفرنسية . فعمل قلم التحرير فى إنشاء المقدمة بالأسجاع المعروفة ثم أرسلها إلى رئيس النظار بالاسكندرية . فلما وقف عليها رياض لم ترقه . وظن لأول وهلة أنها من إنشاء الشيخ محمـــد عبده وأنه على غرار بقية الكتاب بالوقائع المصرية ؛ ثم حضر بعد ذلك رياض إلى القاهرة ، ودعا الشيخ محمد عبده وأراه المقدمـــة أو المذكرة الإيضاحيـــة عن قانون التصفية وقال له : أهذه كتابتك ؟ فقال : لا . فسأله عن عمله فى الوقائع ؟ فقال لم أعمل شيئا ولم أكتب شيئا ، لأن القائمين بالعمل لم يكلفونى بشىء . وحينئذ أعطاه نسخة قانون التصفية وأمره أن يكتب المقدمة أو المذكرة الإيضاحية ويرسل بها إليه بالاسكندرية .

وفعل الشيخ ما أمر به رياض ، فلما جاء القانون ومعه المقدمة وقرأها سر بها وملأته إعجابا بترجمتها ، فترجمت وقرئت فى جلســة علنية ، واستحسنها كل من سمع الأصل والترجمة . وعاد بعد ذلك رياض إلى القاهرة ، ودعا بالشيخ إليه وقال له : إنى قد عينتك رئيســا لتحرير الوقائع المصرية فاختر معك من المحررين من شئت لأعينهم ، فوقع اختياره على حضرات الآتية أسماؤهم :

١ ـــ الشيخ عبد الكريم سلطان .

٢ ـــ سعد زغلول (باشا فيما بعد)

٣ — رضا أفندى زغلول

٤ — إبراهيم أفندى الهلباوى

وعقب تعيين هؤلاء صـــدرت الوقائع المصرية يوم ٩ من جمادى الثانية سنة ١٢٩٧ هجرية موقعا عليها من المرحوم الشيخ محمد عبده الذى صار رئيسا للتحرير فيها خلفا للشيخ أحمد عبد الرحيم ، وقد اشترط الإمام لقبول رياســة التحرير بالوقائع المصرية أن يكون لقلم التحرير بها حق الإشراف على كل ما يصدر من دواوين الحكومة من المحررات الرسمية ، وحق انتقادها وبيان النموذج الذى كان ينبغى أن يكتب به وما ينبغى أن يكتب به أمثال تلك المحررات ـ وذلك كله رغبة منه فى إصلاح لغة الدواوين، فكان له ما أراد ـ ووزع منشور على مصالح الحكومة يقضى على كل مصلحة بأن ترسل إلى الوقائع المصرية صورة ما يكتب به إلى الجهات الرئيسية عما يقع فى ناحيتها مما له نفع للجمهور ليتبع أو ضرر ليجتنب حتى ينشر فى الوقائع المصرية للعظة والاعتبار . فإذا جاءت تلك الصور إلى الوقائع أقرتها ونشرتها إن كانت عبارتها أقرب إلى أن تفهم مع البعد عن الفساد فى التركيب وقبح الأسلوب ، فإذا كانت العبارة بالغة مبلغا عظيما فى الفساد غامضة لا يعلم المراد منها إلا بعسر لخصتها بعبارة سهلة بعيدة عن التعقيد والغموض ، حتى إذا اطلع عليها منشىء تلك المحررات أنارت له الطريق فيما يكتب .

واشترط أيضا أن يكون لقلم التحرير بالوقائع المصرية الهيمنة على الجرائد المصرية فى نوع كتابتها وأسلوبها .

وقد نهضت الصحافة فى هذه الفترة نهضة كبرى ، فظهرت صحف شديدة اللذع والتجريح كـ « التنكيت » و « الطائف » و « المفيد » ، حتى فكرت الحكومة فى سن قانون يقيد الصحافة ، فكان قانون سنة ١٨٨١ م ، فلم يجد ذلك نفعا ، وحدثت الثورة العرابية التى انتهت باحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢م، وبحدوث الاحتلال بدأت الفكرة السياسية ، والنعرة الوطنية تظهر لتشعب اتجاهات الصحف بعد ذلك ، وقد ظهرت فى هذا العهد صحف كثيرة منها: جريدة مصر، وقد أسست عام ١٨٩٥م.

وقد تعددت أغراض الصحف إذ ذاك ، فكان منها السياسى كـ « الأهرام » و « المقطم » و « المؤيد » و « النيل » و « الوطن » ، وغيرها . والعلمى الأدبى كـ « الآداب » و « الأزهر » و « الإصلاح » و « الفـــتى » و « الفرائد »

و « البستان » و « المقتطف » و « الهلال » . و « الطبيب » و « الشفاء » و « الفوائد الصحية » والقانونى ك « الحقوق » و « المحاكم » . والزراعى ك « مجلة الزراعة » .

ولم تقتصر الصحف على الظهور بالعاصمة ، بل كانت تصدر بالاسكندرية ، وطنطا ، وأسيوط ، وغيرها ، وكذلك الحال فى الشام ، وعم ظهورها جميع العالم العربى من العراق ، والهند ، والمغرب ، بل لقد نشأت صحف عربية بالممالك الأوربية وأمريكا .

ولقد كانت البلاد السورية ترزح تحت نير الحكم التركى ، فلم يكن لحرية الأقلام ولا لغيرها من صور الحريات حظ كبير ، فنزح كثير من أدباء تلك البلاد إلى مصر ، وأنشأوا فيها الصحف ، لاتساع مجال الأقلام ، ولما عرفوا من هوى إسماعيل لمظاهر الحضارة الحديثة ، وتشجيعه للأدب ، وعطفه على رجال البيان . وأقدم تلك الصحف جريدة (الكوكب الشرق) التى أصدرها سليم حموى باشا فى الإسكندرية سنة ١٨٧٣ م . ثم صدرت فى الاسكندرية أيضا (الأهرام) للأخوين سليم وبشارة تقلا فى سنة ١٨٧٦ م ، ثم نقلت إلى القاهرة ، وما برحت تصدر بها إلى الآن . ثم صدرت (المحروسة) لصاحبيها أديب إسحاق ، وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ م ، وما زالت تتعاون الأيدى بعدها حتى أبطلت . ثم ظهرت جريدة (المقطم) سنة ١٨٨٨ م .

ولقد راع أهل الرأى وأعيان أصحاب الفضل أن ليس هناك صحيفة واحدة تتحدث عن الأمة وتترجم عن الأمانى القومية ، والاحتلال الانجليزى قائم فى البلاد ، وسلطان المعتمد البريطانى يتبسط فى جميع مرافقها يوما بعد يوم ، إذ الصحف القائمة ما بين مؤيد للنفوذ البريطانى ، جاد فى الدعوة إليه ، و بين من كان ظاهر الهوى إلى فرنسا ، أما الصحف المصرية الطائفية ، فكانت نزعتها ، على الجملة ، احتلالية ، راع المصريين هذا ، وسرعان ما صدرت فى السنة التالية ١٨٨٠ جريدة « المؤيد » ويقوم على شأنها المرحومان الشيخ على يوسف والشيخ أحمد ماضى . ثم خلصت لأولهما بعون من أصحاب الفضل واليسار ، وأقبل أئمة العلماء وكبار الكاتبين من الساسة والأدباء على المؤيد فأجالوا أقلامهم فيه بكل كريم من القول جليل ، وكذلك أصبح المؤيد لسان مصر الناطق ، وترجمانها الصادق . كما أصبح ترجمان

العالم الإسلامى كله ، بما شاد بفضائل الإسلام وذاد عنه ، ونافح عن حقوق المسلمين فى كل مكان ، وكان يكتب فيه عصارة رجال العلم والقلم من أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، وقاسم بك أمين وإبراهيم بك المويلحى ،ومصطفى كامل باشا فى أول نشأته . وأضرابهم .

وكانت المؤيد هى المدرسة التى تخرج عليها أشهر كتاب العصر الماضى . وسيأتى ذكر صاحبها فى موضع آخر .

وفى سنة ١٩٠٠ أصدر المرحوم مصطفى كامل جريدة اللواء ، وكان شعلة ملتهبة من الوطنية الخالصة ، جياش القلم بحق الوطن فى الخلاص من الاحتلال الأجنبى ، وسرعان ما التف حوله شباب البلاد وكثير من شيوخها ، وأحبوه وظاهروه وناصروه . وبهذا استطاع أن يؤلف أول حزب فى البلاد بعد الاحتلال الإنجليزى وهو (الحزب الوطنى) . وأنشأ صحيفتين أخريين إحداهما فرنسية ، والأخرى إنجليزية ، وأرصدهما للغرض الذى أصدر له اللواء . على أنهما لم يعيشا طويلا .

ثم توالى ظهور الصحف اليومية من ذلك التاريخ إلى الآن . وما برحت الصحف المصرية تتبارى فى التجويد والإحسان بسعة الحجم ، وإتقان الطبع ، وصحة العبارة ، والإسراع إلى نشر الأنباء الهامة ، فى مصر بطريق مخبريها ، وفى سائر أرجاء العالم عن طريق مراسليها فى أهم مدن الغرب والشرق ، وقد عنيت بعض الصحف فى أكثرها بأبواب العلوم والفنون والآداب ، يتبارى فى القول فيهـا كل نابه ، من عالم وأديب وفنان ، وعنى أكثرها كذلك بتجلية ما يهم الجمهور من صور الأناسى والأمكنة وغيرهما . وعلى الجملة فقد جعلت الصحف فى بلادنا تحاكى مثيلاتها فى الغرب . وأصبح أكثرها ألسنة للأحزاب القائمة فى البلاد ، وقد زاد عدد المطبوع منها زيادة هائلة بكثرة المتعلمين ، وإقبال الجمهور على تفهم الشئون العامة .

ولم يكن شأن المجلات العلمية والأدبية والفنية فى بابها بأقل من شأن الصحف السياسية . فقد جعلت هى الأخرى تتبارى فى الإجادة والإحسان ، حتى أدرك بعضها حظا جليلا من شأو مثيلاتها فى بلاد الغرب .

وأهم الجرائد والمجلات فى هذه الفترة : اللواء ، والمؤيد ، والهلال ، والمقتطف ، والوطن ، والأخبار . . وقد كثرت وتعددت الصحف العربية ، وكان لا يمضى شهر

حتى تكون قد صدرت فيها أكثر من صحيفة واحدة من الصحف اليومية والأسبوعية ونصف الأسبوعية والشهرية ونصف الشهرية . وقد صدرت فى عام (١٩٠٠) وحده سبع وثلاثون صحيفة منها : اللواء ، ومجلة اللواء لمصطفى كامل باشا ، والمجلة المصرية للأستاذ خليل مطران ، وكان مديرها العلامة الأستاذ محمد مسعود الذى لايذكر « المؤيد » إلا مقرونا باسمه مع الشيخ على يوسف .

ومن هـذه الصحف أيضاً : صحيفة الأفكار ومجلة الهوانم ومجلة المجلات العربية ومجلة التمثيل ومجلة الصباح والرسول . وقد استمرت هذه النهضة فى أوائل القرن العشرين تساعدها تلك الحرية النسبية التى كانت لها فى عهد اللورد كرومر . ولما انتهى ذلك العهد بدأت الصحافة تلاقى نوعا من الشدة والتقييد ، وجاءت الحرب الكبرى فكانت عاملا على إضعاف شأنها وموت كثير منها . وما انتهت هذه الحرب حتى كان أكثر الصحف المصرية قد انقرضت ولم يبق منها إلا عدد قليل . ثم أخذت تتقدم تقدما محسوسا فى اتجاهاتها وأسلوب كتابتها ، وظهرت عدة صحف ومجلات جديدة . ولولا القوانين الكثيرة التى فرضت على حرية الصحافة ، لصار فى مصر عشرات من الصحف ومئات من الجرائد والمجلات التى تتناول كثيراً من الموضوعات العلمية والأدبية والسياسية .

تقدم العلوم والآداب :

فى هذه الفترة أخذت العلوم والفنون والآداب تطرد فى سبيل تقدمها ورقيها إلى اليوم . على أن قوة اطرادها فى هذه المدة لم تكن على درجة سواء ، بل كانت تغذ السير حينا وتتئد فى مشيها حينا ، إلا أنه فى السنين الأخيرة من هـذا العهد قويت حركة التعليم فى العلوم والفنون والآداب ، وعظمت نهضتها إلى الحد الذى لم تبلغه فى أى دور من أدوار العصر الحديث سواء فى كثرة عدد المتعلمين ، أو فى أنواع التعليم ، أو فى التجرد لطلب العلوم العالية : فى مصر ، وفى بلاد الغرب .

أما التعليم الأولى فقد فرض على كل مصرى ومصرية متى بلغ الخامسة من العمر ، وجعله بالمجان . وقد أنشأت وزارة المعارف تحقيقا لهذه الغاية قدراً كبيراً جداً من المدارس الأولية بثتها فى جميع مدن القطر المصرى وكثير من قراه ،

حيث يتعلم الأطفال فيها القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن كله أو بعضه ، والحساب وصورا من المعلومات العامة (الجغرافيا والتاريخ والأشياء وتدبير الصحة) والتربية الوطنية ، والرسم .

وأما التعليمان الابتدائى والثانوى فقد زادت مدارسهما زيادة هائلة بما أنشأته وزارة المعارف وما ينشئه الأهلون أنفسهم . وأما التعليم الفنى فى مصر فقد بلغت العناية به مدى بعيدا بقيام المدارس المتوسطة والعالية لكل من فنى الزراعة والتجارة . ورفع شأن مدرسة الفنون والصناعات . وأنشأت المدارس لتعليم الفنون الجميلة من النحت والتصوير والزخرفة ونحو ذلك

وأما التعليم العالى فقد وسع فى مناهجه ورقت علومه . وزيد فى مدارسه بإنشاء معهد التربية . وقد زاد الاهتمام كذلك بإرسال البعوث إلى جامعات الغرب للتزود بقسط من ثقافتها .

الجامعة المصرية :

هزت الوطنية المصرية طائفة من كبار المصريين ، فتنادوا فيما بينهم ، وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوهم على إنشاء جامعة أهلية توافى مطامع البلاد فى التعليم العالى . وقد تم لهم ما أرادوا وتبارى المحسنون فى الاكتتاب لهذا الغرض . ومن أجل ما رفدت به الجامعة ماوهبته فاطمة هانم إسماعيل من نقود وحلى وحبوس ، وأجرت عليها نظارة (وزارة) الأوقاف بضعة آلاف جنيه كل عام ، وقد فتحت هذه الجامعة فعلا فى سنة ١٩٠٨ م . ودعت كبار العلماء من المصريين والأجانب للتدريس فيها . وبعد قليل أجرت عليها الحكومة كذلك إعانة سنوية .

وفى يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ م احتفل بافتتاح الجامعة المصرية بجمع حاشد فى قاعة مجلس شورى القوانين ، وقد خطب فيه رئيس الجامعة والخديو عباس حلمى ودرس فيها مشهور الأساتذة المصريين وكثير من الأساتذة الذين انتدبوا من الغرب

وفى سنة ١٩٢٥ م بعد نيل البلاد استقلالها ، انضمت الجامعة إلى الحكومة حين لا يخشى عدوانها على التعليم ، فهى الآن تتمتع بقسط وافر من ميزانية الدولة ، ويخول أساتذتها كل ما يعينهم على متاعبهم الجمة فى سبيل التحقيق العلمى ، فلهم الكرامة الموفورة ، والرواتب العالية ، وبين أيديهم مكتبتها الحافلة .

وتقوم الجامعة المصرية على كليات عديدة : منها الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، والتجارة ، والهندسة ، والزراعة ، وقد آتت ثمارها ، لحصل كثير من شباب مصر وشوابها على إجازاتها المختلفة ، وكانت أول فتاة نالت إجازتها فى الحقوق هى : « الآنسة نعيمة إلياس الأيوبى » ، كريمة المؤرخ الجليل المرحوم إلياس الأيوبى ، صاحب المؤلفات التاريخية التى يتوجها كتاب تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل .

كما كانت أول فتاة نالت إجازتها فى الآداب هى : « الآنسة سهير القلماوى » ، التى تقوم الآن بالتدريس فى كلية الآداب بالجامعة .

وقد غير اسم الجامعة المصرية إلى جامعة فؤاد ثم أخيرا إلى جامعة القاهرة ، وقد أسست فيما بعد جامعات مصرية أخرى منها : جامعة عين شمس ، وجامعة الاسكندرية ، وجامعة أسيوط . وكان لها ولاشك أثر كبير فى نشر الثقافة وتقويم العقل المصرى الحديث .

المجمع اللغوى فى مصر :

إن فكرة إنشاء مجمع لغوى فى مصر قديمة ترجع إلى عام ١٨٩٧ حين اجتمع أول مجمع لغوى ، وكان مقره دار آل البكرى ، وتولى رياسته السيد محمد توفيق وأسندت وكالته إلى الشيخ محمد عبده ، وكان من أعضائه المرحون البكوات : حفنى ناصف ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان بك ، ومحمد دياب بك ، ومصطفى نجيب ، والشيخ محمد بن محمود التركزى الشنقيطى ، وإسماعيل صبرى باشا .

وقد كان من عمل هـــذا المجمع وضع ألفاظ لمخترعات حديثة كالمسرة بدل « التليفون » والبرق بدل « التلغراف » ، وسيارة بدل « الأتوموبيل » و « الدراجة » بدل « البسيكليت » . وكانوا قد اختلفوا فى الأتوموبيل : فرأى محمد دياب بك أن يسمى المخودة ، ورأى الأمير شكيب أرسلان ، ولم يكن من أعضاء المجمع أن يسمى قرارة ، وكان رأى أحمد زكى باشا أن يسمى سيارة ، فكان لوضعه الغلب ، وذاعت الكلمة مع ما يلاحظ عليها من أنها لاتدل إلا على تتابع السير مع أن أظهر ما فى الأتومبيل هو السرعة ، فكانت كلمة شكيب أرسلان أولى وأقوم ، لولا أن للذوق حكما يتغلب دائما ، وكان من عمل هذا المجمع أيضاً ، وضع بهو

بدل « صالون » و بطاقة بدل « كرت » ومعطف بدل « بلطو » ، وهذه جرى فيها نقاش ، فإن محمد دياب بك رأى أن مدلول المعطف فى اللغة ينطبق على البرنس أو الشال الكشميرى ، أما الكلمة التى ينطبق مدلولها على البلطو ، فهى الميثرة إذ هى الثوب الذى يلبس فوق الثياب .

وكذلك وضع من أسماء المعانى كلمة مرحى بدل « برافو » وكلمة عم صباحاً ، وعم مساء بدل بنجور وبنسوار .

وفتر العمل فى هذا المجمع ، وانتهى أمره إلى السكوت فالموت ، ولكن الحاجة ما زالت ملحة ، والإباء اللغوى زاد بما أصبح للعربية من مكانة فى النفوس ، وما شعرت به مصر من زعامة فى هذه اللغة حملها لواءها جميع أمم اللسان العربى فى العالم ، فكان من كل ذلك أن تألف فى عام سنة ١٩١٧ م ، مجمع لغوى جديد لا تختلف وجهته عن سابقه .

وتولى المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الإسلام إذ ذاك رياسة المجمع ، وأسندت وكالته إلى المرحوم الشيخ محمد بخيت ، وكان كاتب سره أحمد لطفى السيد ، ومن أعضائه المرحومون : أحمد زكى باشا ، ومحمد عاطف بركات باشا ، وإسماعيل رأفت بك ، والدكتور يعقوب صروف ، والشيخ محمد شريف سليم ناظر دار العلوم ، وحفنى ناصف بك ، ومن غير هؤلاء المشايخ : أحمد إبراهيم بك ، والمرحوم أحمد الإسكندرى ، ومصطفى العنانى .

وقد كان المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إبان ذلك ، لا يزال فى الأحياء ، ولكنه اعتذر عن العمل فى هذا المجمع لمرضه . وقد بحث هذا المجمع طريقة وضع معجم لغوى مهذب سهل التناول يشتمل على ألفاظ عربية ، أو معربة لكل دخيل ، أو عامى يهاجم الفصيح .

وكان مما بحثه المجمع ، واستقر عليه رأيه ، كلمات الخز بدل « الصوف على حرير » والمركن بدل « طشت الغسيل » والكرامة بدل « الكراكة » والموم بدل « المكوك » والأثر أو الخلاص بدل « المرتة » والماصر[1] بدل « الجرك » .

---

(١) الماصر هو الحاجز بين الأرضين .

وما لبثت ثورة سنة ١٩١٩ أن فرقت شمل هؤلاء .

ولكن الغيرة على اللغة لم تزل دافعة لأهلها على الذود عن حقيقتها ، فاجتمع نفر من أفاضل العلماء في بيت إدريس راغب بك ، وتوالت اجتماعاتهم مدة ، ولكن مجمعهم لم يثمر شيئاً بل قضوا نحو عامين في عمل غير جوهري ، ثم لحق سابقيه ، وكان من أعضائه : عبد الفتاح صبري باشا ، وخليل مطران ، والأستاذ أنطون الجميل ، والمرحومان : الشيخ محمد الخضري بك وأمين ناصف بك ، وغيرهم من أعضاء المجمعين السابقين .

وفي عصر الاستقلال كان لابد من إنشاء مجمع لغوي منظم ، وأنشيء المجمع فعلا ، وصدر المرسوم بإنشائه في ١٤ شعبان ١٣٥١ هـ ، ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م ، وبتعيين أعضائه في ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣ م ؛ وهؤلاء الاعضاء ، وفيهم الرئيس ، عشرون ، اختيروا من العلماء اللغويين المعروفين بالحدب على اللغة وحسن البلاء في خدمتها من رجال مصر والأقطار العربية ؛ ومن المستعربين من علماء أوروبا ، وكان أول اجتماع لهم في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ م .

ومن أهداف المجمع أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدد ما ينبغي استعماله أو تجنبه من التراكيب ، وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتفسير مدلولاتها ؛ وأن ينظم دراسات علمية للهجات العربية الحديثة بمصر والبلاد العربية وأن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية .

ويشارك المجمع اللغوي وزارة المعارف في تشجيع الأدب بإقامة مباريات أدبية دورية ، وقد عول أخيراً على تتويج الكتب الممتازة ليرشد القراء من ناحية إلى خير ما يقرأون ، ويشجع الكتاب تشجيعا أدبيا من ناحية أخرى .

لذلك نص في قانونه على أن يكون تابعا لوزارة المعارف في القاهرة ، وجاء في القانون أن الغرض من إنشائه هو :

١ — المحافظة على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، وذلك

بأن يحدد فى معاجم أو تفاسير خاصة أو بغير ذلك ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب .

٢ — أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثا دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

٣ — أن ينظم دراسة علمية ، للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٤ — أن يبحث كل ماله شأن فى تقدم اللغة العربية .

ولقد امتحنت اللغة العربية مرارا ، فجازت الامتحان فى يسر ، وأقامت الدليل على أنها لغة نضجت ، وأداة طيعة متطورة ، إذا فزع إليها أهلها وجدوا عندها الغناء فيما يعينهم على التعبير عن عواطفهم ، شعراً مثالياً وأدبا رفيعا ، وعن أفكارهم فلسفة عميقة ، وتصوفات تستغرق الحقيقة التى وراء الحقيقة ، وثقافة نضيرة مترعة حكمة وأصالة وسدادا ، وعن مشاهداتهم واختباراتهم وتجاريبهم ، علما سائغا فسيح الرحاب يستوعب الكون وقوانينه ومظاهره .

ووسعت اللغة العربية فلسفة الإغريق وعلومهم ، وماقصرت فى تجليتها رائعة دقيقة ، وكانت وسيلة الوسائل فى نقل علوم الهند وفلسفتها ، وتراث المصريين الذى احتفظت به مصر جيلا بعد جيل . وظلت العربية هى اللغة العالميـــة الأولى ، منذ الفتح الإسلامى ، إلى ما بعد الحروب الصليبية ، من أجادها من الأجانب عنها ، فهو المتحضر ، وهو المثقف غير منازع .

ولما تقوضت معاهد العربية ، وتلاشت أو ضؤلت جامعاتها ، بفعل الغزاة من الشرق ومن الغرب ، خيل للناس أنها ماتت إلى الأبد ولن تبعث أبدا . لكن هــذه اللغة عادت إلى الحياة مع فجر القرن العشرين ، وقام الدليل على أنها وعاء صالح للعلوم السائدة التى تفجر ينبوعها فى عصر نهضة العلوم ، واطرد نموها واتسع نطاقها ، وزخرت بالطريف من المعرفة ، والجديد من حقائق هذا الكون وقوانينه وكشفت عن المذخور فى أغوراه .

وإذا كانت بغداد قد ذهبت بفخر النقل من الإغريقية ، والهندية ، والقبطية والفارسية ، فقد حق للقاهرة ، أن تفخر بأنها سوق الترجمة إلى العربية ، فقد نقل العلماء المصريون فى القاهرة جميع ما كان هنالك من علوم حديثة .

ونهضت حركة النقل إلى العربية ، التى اضطرمت فى هـذا العهد ، أو على التحقيق منـذ سنة ١٩٠٨ منذ أنشىء فى وزارة المعارف مكتب للترجمة ، وحين تقرر تدريس العلوم بالعربية فى المدارس العالية . . وتوجت هذه الحركة بإنشاء المجمع اللغوى .

ولقـــد حقق المجمع اللغوى فى مصر كثيراً من الأهداف المنشودة فى سبيل الإصلاح اللغوى ونهض باللغة العربية ، وهو دائب العمل لجعلها لغة عالمية متفوقة قادرة على استيعاب شتى الثقافات والأفكار ، قدرتها على الترجمة إليها ونقل شتى العلوم لها من اللغات الأجنبية ، وعلى استيعاب هذه العلوم والثقافات استيعابا كاملا.

أثر الجامعة الأزهرية :

وللأزهر الشريف فى هذه الفترة أثر كبير فى تقوية النهضة الثقافية وفى النهوض باللغة العربية وآدابها ، وقد عمل المسلمون على إصلاح الأزهر ، ودعا محمد عبده كثيرا إلى هذا الإصلاح ، وكان الشيخ محمد عبده قد تنبه إلى نقص علوم الأزهر ، ونادى بوجوب التوسع فيها حتى يتكون العالم الأزهرى تكوناً صحيحا يليق بحمل اسم الدين ، فكان من نتيجة دعوته إلى ذلك أن ثار فى وجهه الجامدون من الأزهريين ، واتهموه بإفساد الأزهر ، ولكن الرجل لم يعر تهمهم اهتماما ، وظل يجاهد ويجالد حتى صدر فى عام سنة ١٣١٤ هـ ، سنة ١٨٩٦ م ، قانون قضى بأن تقسم العلوم فى الأزهر قسمين : مقاصد ووسائل .

فالأولى هى : الكلام ، الأخلاق الدينية ، الفقه ، أصوله ، التفسير ، الحديث.

والثانية : النحو ، الصرف ، علوم البلاغة ، المنطق ، مصطلح الحديث ، الحساب الجبر ، العروض والقافية .

وتجمع الطلبة ، بالمكافأة والتفضيل ، على تحصيل تاريخ الإسلام ، والإنشاء : قولا وكتابة ، واللغة متنا ، ومبادىء الهندسة ، وتقويم البلدان .

وحظر هذا القانون على الطلبة الاشتغال بالمقاصد إلا بعد الحصول على وسائلها ، ومنع قراءة الحواشى فى السنوات الأربع الأولى .

وجعل الامتحان على نوعين : أولهما لنيل شهادة الأهلية ، ويكون بعد مضى ثمانى سنوات على طلب العلم على الأقل ، وثانيهما : لنيل العالمية ويكون بعد اثنى عشرة سنة ، وتؤهل الشهادة الأولى صاحبها لوظائف الإمامة والخطابة والوعظ

فى المساجد والتعليم بالمدارس الابتدائية ، وأما الثانية فصاحبها يتولى التدريس بالأزهر ويتمتع بمزايا العلماء .

وفى ٨ صفر سنة ١٣٢٦ هـ ، الموافق ١١ مارس سنة ١٩٠٨م ، صدر قانون جعل للأزهر مجلسا عاليا يشرف على الجامع الأزهر وما شاكله من المدارس الدينية الإسلامية ، وجعل التعليم بالأزهر ثلاث مراحل : أولى وثانوى وعال ، وحدد لكل مرحلة أربع سنوات ، وجعل الانتقال من مرحلة إلى التى تليها بامتحان .

وفى رمضان سنة ١٣٢٨ هـ ، الموافق سبتمبر سنة ١٩١٠ م ألفت لجنـــة أخرى للنظر فى مناهج الأزهر فأحدثت فى المناهج تعديلا كبيراً .

ثم صـدر قانون رقم ٢٣ سـنة ١٩٢٣ م بإنشاء أقسام التخصص بعـد نيل شهادة العالمية .

وفى سنة ١٩٣٠ م جرى الأزهر على نظام الجامعات الكبرى ، وصار يشتمل بعد التعليم الثانوى على كليات ثلاث : الشريعة ، واللغة ، وأصول الدين ، يليهـا تخصص فى المهنة أو المادة ، وصار الأزهر يسمى « الجامعة الأزهرية » .

ولا شك أن الأزهر بكلياته ومعاهده قـد أفاد الثقافة فائدة جلى تذكر دائمـا بالفخر والتقدير .

أثر الحضارة الغربية فى رقى الثقافة :

فى هذه الفترة اتصلت مصر بالحضارة الغربية وأخذت منها ألوانا من الثقافة وأسلوب الحياة ، وقـــد شهدت مصر قيام خزان أسوان عام ١٩٠١ ، وقيام الأحزاب المصرية عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، وقيام الجامعة المصرية سنتى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ؛ وهذا كله من أسس الاجتماع ، الذى اقتبسته مصر من حضارة الغرب .

فلجنة من علماء الغرب هى التى أشرفت على وضع تصميم الخزان وإنشائه، واتصال مصطفى كامل ببيئات الغرب هو الذى دعاه إلى التفكير فى تأسيس الحزب الوطنى، وهذا التأسيس هو الذى مهد لتأسيس حزب الاصلاح على المبادى الدستورية ثم حزب الأمة ، وتحصيل عدد من قادة الفكر المصريين فى جامعات فرنسا هو الذى أعان على دعم حركة الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية التى أسندت إلى قاسم أمين وحسين رشدى والدكتور علوى وعلى أبو الفتوح وعلى بهجت .

والاقتباس من الغرب يرجع أكثر ما يرجع إلى البعثات الدراسية فى أوربا .

ولقد أخذت مصر فى إرسال هذه البعثات قبل هذه الفترة ولكن الاحتلال عرقل

سير إرسال البعوث إلى أوربا . وحصرت الجهة التي تبعثهم إليها في انجلترا دون سواها ، ونزلت بمستوى المعاهد التي يبعثون للتحصيل فيها . فخل هذا القرن العشرون وليس لمصر من شباب البعثات إلا النـــزر اليسير ، لكن الدعوة الوطنية التي عمل لها مصطفى كامل، والتي كانت تستند ، أهم ما تستند ، إلى نشر التعليم ورفع مستوى معاهده ، دفعت القادرين من المصريين على إرسال أولادهم على نفقتهم الخاصة للدراسة في المعاهد الراقية بفرنسا وبأوربا ، كما أن الإعداد لقيام الجامعة المصرية بإرسال بعثاتها دفع بالحكومة إلى استئناف إيفاد المتفوقين على غرار ما كان يجرى في عهد محمد علي وعهد إسماعيل، وكان طبيعيا أن يعود كل هؤلاء. وهؤلاء بعد قضائهم سنوات في بيئات الغرب دعاة إلى حضارة الغرب وحاثين على الأخذ بطرائق الحياة فيه ، ومدخلين طرائق التفكير وأساليب البحث المعروفة هناك..

وتلك البعثات كانت تفعل فعلها في الصفوة ، ولا ننسى ذكر الحرب العالمية التي وقعت أوائل هذا القرن فقد كان من شأنها أن تقرب بين مظاهر الحضارة الغربية والكافة من المصريين. فأخذوا يقتبسون من هـذه المظاهر بقدر ما تطاوعهم الامكانيات، وأدخلوا على طرق معيشتهم وعلى طراز ملابسهم الكثير مما كانوا من قبل يجهلون. هذا إلى أثر سهولة المواصلات وكشف المذياع وسواه من مخترعات الحضارة الغربية التي قربت بين مصر والثقافة الغربية ، وأقامت لها سوقا كبيرا في بلادنا .

أما الميدان الاجتماعي فقد عمر نصف القرن المنقضى ـ وإن مر بخطوات وئيدة ـ بالاقتباس عن الحضارة الغربية في شئونه المتصلة بفكرة التعاون ونظام النقابات والتأمين الاجتماعي وعلاقات العمال بأصحاب الأعمال ، كذلك أخذنا بنظام الضرائب ، ولا سيما النظام التصاعدي فيها .

وكذلك اقتبسنا عن الحضارة الغربية وسائل الهناءة في المعيشة ، وقد توافرت أسباب الراحة في مبانينا الجديدة من ناحية التدفئة شتاء والترطيب صيفا وتزويد المنازل بأحدث الابتكارات . واقتبسنا فيما اقتبسنا من حضارة الغرب أبوابا من الفنون الرفيعة لم تكن لدينا قبل هـذا القرن العشرين . فقد وجدت الموسيقى والرسم والتصوير والغناء والنحت والتمثيل وسواها من شتى مظاهر الحضارة التي تؤثر في سير الثقافة واتجاهاتها وأهدافها .

انتهى الجزء الثالث ، ويليه : الجزء الرابع

فهرس